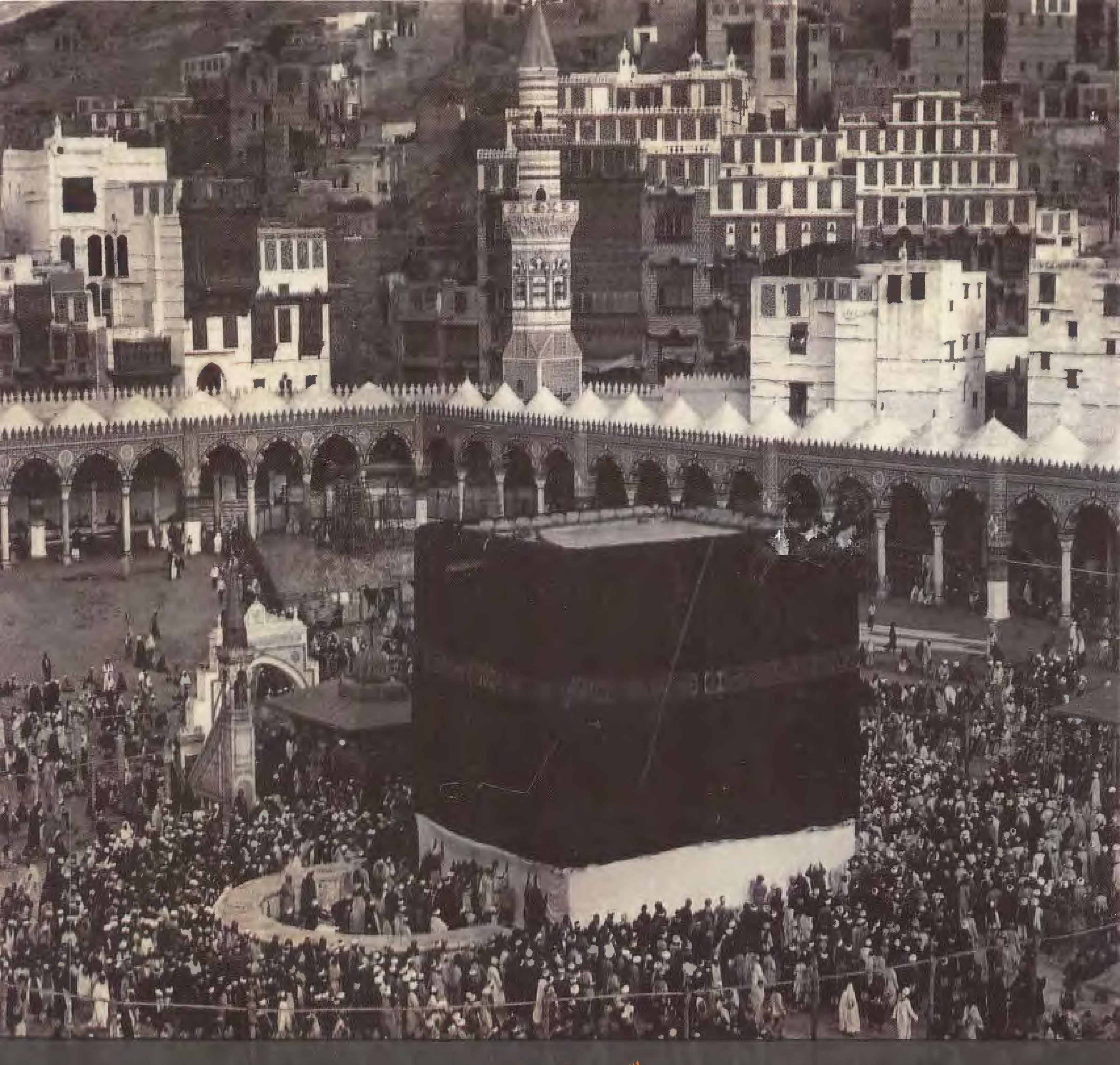


مصوِّر في الحج

رحلات محمد أفندي السعودي(1904-1908)

تأليف: فريد قيومجي كحيل و روبرت غراهام

ترجمة: د. سُرى خريس

نبذة عن المؤلف:

المؤلفان: فريد قيومجي، وهو باحث متخصص في أدب الرحلات المتعلق بالشرق الأوسط، وما يحويه من وثائق تاريخية، ووصف لرواسم حجرية، وصور فوتوغرافية تعود إلى القرن التاسع عشر على وجه الخصوص.

أما روبرت غراهام، فهو صحافي مستقل يعيش اليوم في باريس وجنوب إسبانيا. منح في عام 2004 وسام الفروسية الشرفية برتبة ضابط الإمبراطورية البريطانية (OBE: Officer of British Empire) لما قدمه من خدمات جمة للصحافة والإعلام.

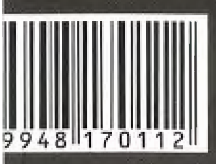
نبذة عن المترجم:

الدكتورة سرى خريس، الأستاذ المساعد في النقد والأدب الإنجليزي، حصلت على درجة الدكتوراه من الجامعة الأردنية عام 2001، وتعمل حالياً في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة العلوم التطبيقية الخاصة في عمان- الأردن. تنصب اهتماماتها على الدراسات النسوية والأدب العالمي. من أعمالها المترجمة: الإسلام والاستشراق في العصر الرومانسي: مواجهات مع الشرق لمحمد شرف الدين، والمؤلف لأندرو بينيت، وتسلق أشجار المانغا لمادور جافري، وجميعها صادرة عن مشروع كلمة للترجمة- هيئة أبوظبي للثقافة والتراث.



مصور في الحج

يعد كتاب مصور في الحج تأريخاً مصوراً لرحلة الحج والأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وتعكس يوميات المصوِّر محمد علي أفندي السعودي، وهي موضوع هذا الكتاب، رؤية نادرة -عبر عينين مصريتين- لرحلة الحج التي قامت بها الحملة المصرية في مطلع القرن العشرين، إبان حكم الإمبراطورية العثمانية، وبتزامن مع تشييد سكة الحجاز الحديدية، التي ستغير طرق الحج المعتادة. يحكي لنا السعودي تفاصيل رحلته الثانية إلى الديار المقدسة، برفقة إبراهيم رفعت باشا؛ أمير الحج المسؤول عن قافلة الحج المصرية آنذاك. وتجمع حكاية اليوميات أفكار المسلم الورع، والتفاصيل المتعلقة بالمخاطر الصحية، وتلك الأخطار التي واجهها الحجاج في رحلتهم البرية، والمصاعب المرتبطة بعملية التقاط الصور الفوتوغرافية ذاتها. ولقد قام المؤلفان باختزال اليوميات وتقديمها في صورة سردية مدعمة باقتباسات اختيرت بعناية، وصور فوتوغرافية نادرة التقطها السعودي بنفسه.

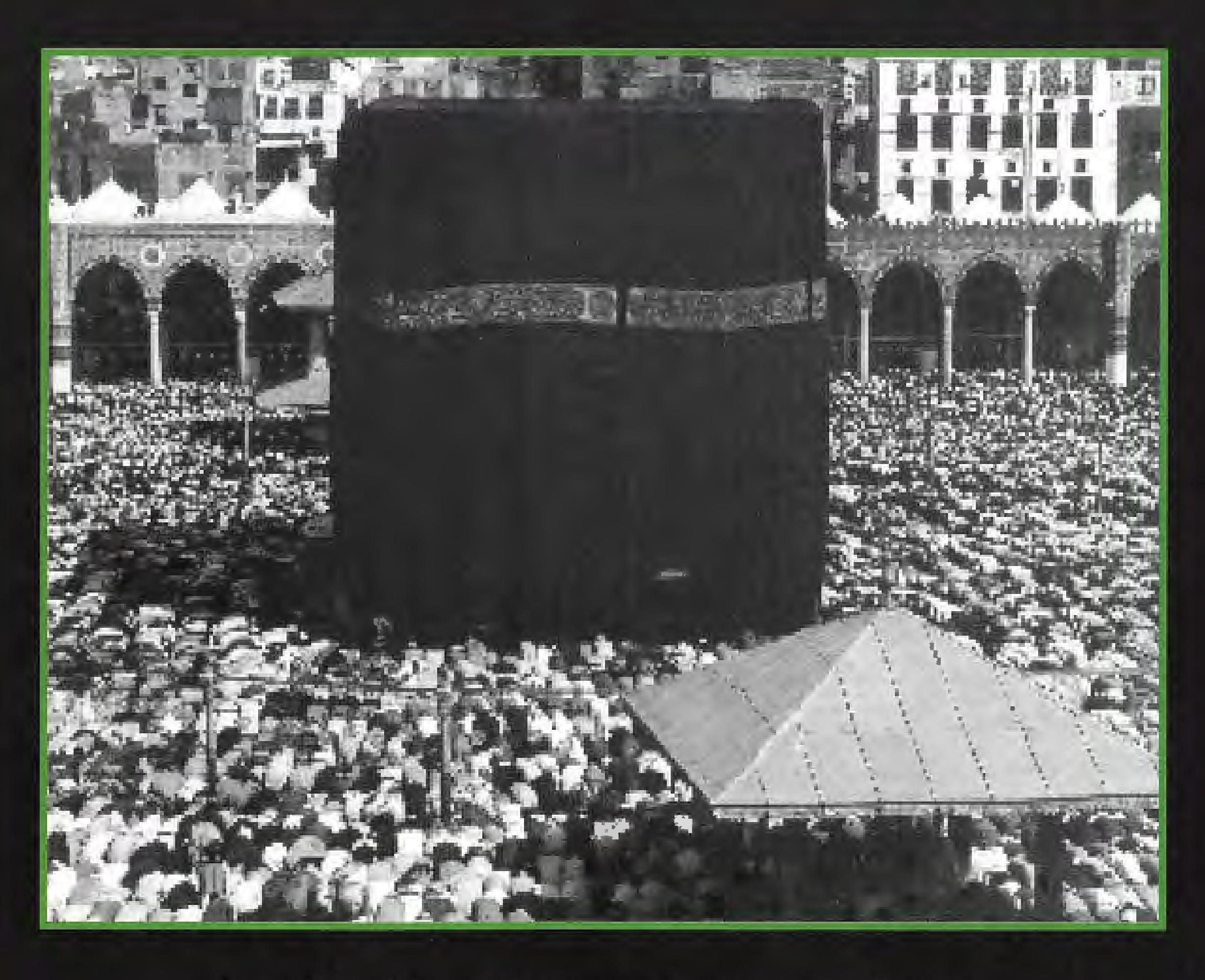






المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة


لا إله إلا الله محمد رسول الله
يا حنان
يا منان



الحجاج وقت تجمعهم في باحة المسجد الحرام في مكة لأداء صلاة الجمعة.
داخل المسجد الحرام في مكة، ويبدو إلى اليسار المبنى الذي يحوي بئر زمزم.



مصوِّر في الحج

رحلات محمد علي أفندي السعودي (1904–1908)

تأليف: فريد قيومجي كحيل وروبرت غراهام

ترجمة: د. سُرى خريس

تحرير: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

BP187.3 .K56 2009
Kioumgi, Farid
A photographer on the Hajj
مصور في الحج: رحلات محمد علي أفندي السعودي (1908-1904) / تأليف فريد كيوميجي، روبرت غراهام؛ ترجمة سري خريس، أحمد خريس.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 181 ؛ 25×25 سم.
ترجمة كتاب: A photographer on the Hajj: the travels of Muhammad Ali Effendi Sa'udi 1904/1908
تدمك: 978-9948-17-011-2
1 - الحج - صور. 2 - السعودية - تاريخ.
أ- Graham, Robert ب- خريس، سري.
ج-خريس، أحمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Farid Kioumgi and Robert Graham
A Photographer on the Hajj: The Travels of Muhammad 'Ali Effendi Sa'udi (1904-1908)

First published in English as ***A Photographer on the Hajj***. This edition is translated into Arabic by arrangement with the American University in Cairo Press.



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

مصوِّر في الحج

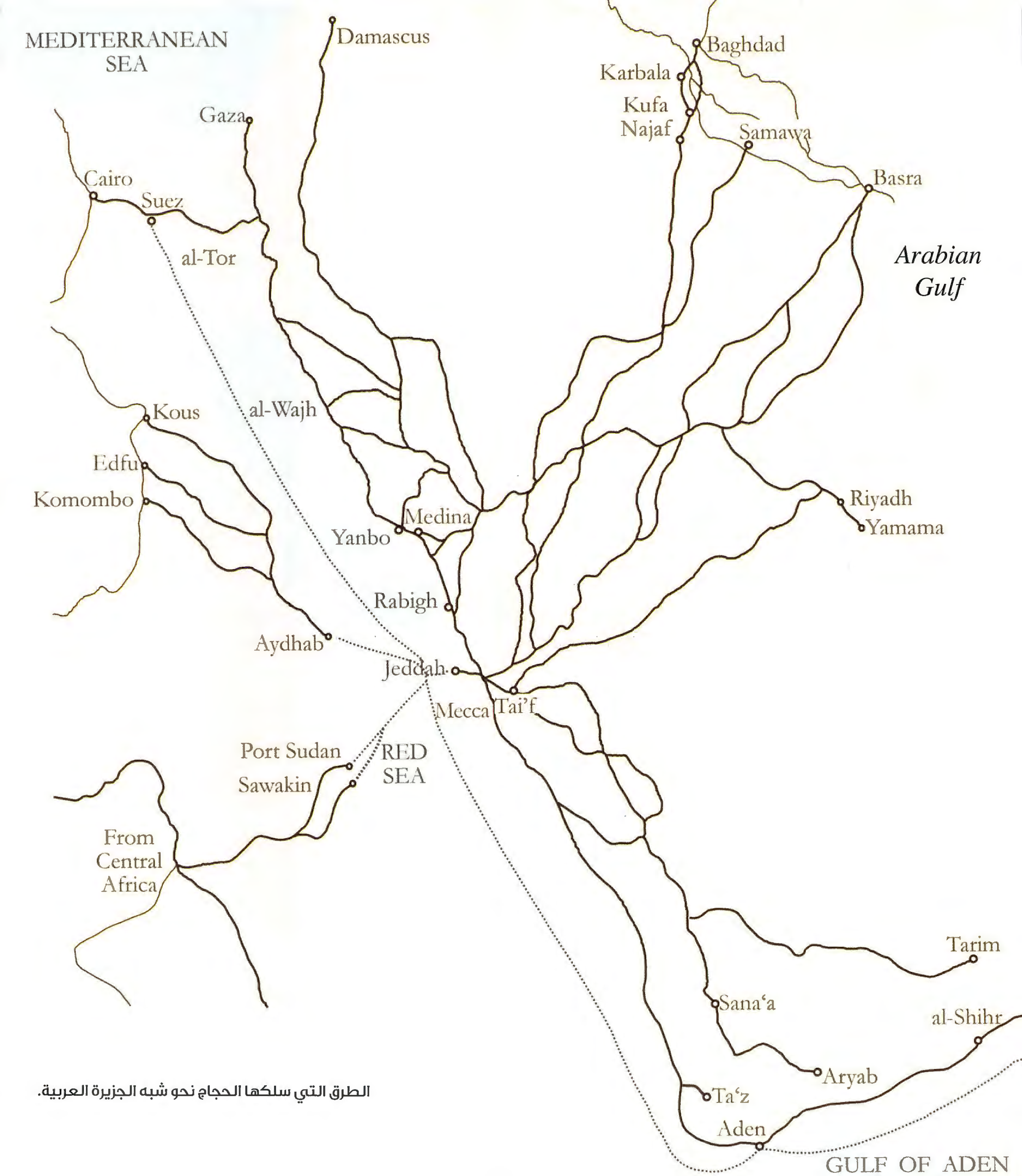
رحلات محمد علي أفندي السعودي (1904–1908)

المحتويات

إلى جميع الحجاج الذين قضوا وهم يؤدون فريضة الحج

شكر وعرفان

يرغب المؤلفان في تقديم الشكر لعدد من الأشخاص الذين أسهموا في إعداد هذا الكتاب. أولاً: تونا كوليير (Touna Collier)، التي كان أثر دعمها وتشجيعها لفكرة تأليف هذا الكتاب المشترك، إيجابياً للغاية. ويتقدم المؤلفان بالشكر الجزيل لشركة سوذبايز (Sotheby's) للمزادات، وبخاصة قسم الكتب والمخطوطات. كما يعترف المؤلفان بفضل لندن، ذلك أنها مصدر لا ينضب للخبراء الذين زودوا المؤلفين بنصائح ثمينة. ويقدّر المؤلفان جهود كل من روجر غريفيث (Roger Griffith)، وريتشارد فاتوريني (Richard Fattorini)، وبول كواري (Paul Quarrie)، الذين جعلوا من الرحلات التي وقعت في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والصور الفوتوغرافية الخاصة بها، محط اهتمام الباحثين الأكاديميين الجادّين في مؤسسات أكاديمية مختلفة، وكذا محط اهتمام جامعي الصور الفوتوغرافية. لقد كانت المساعدة التي قدمها راندي دانفورث (Randi Danforth)، من مؤسسة كايرو بريس (Cairo Press) للنشر، التابعة للجامعة الأمريكية، لدى إعداد هذا الكتاب، لا تقدر بثمن. وقد كانت ناديا نقيب (Nadia Naqib) مثالاً نموذجياً للكفاءة، فقد أظهرت براعة في ربط النصوص والصور الفوتوغرافية، من مسافة بعيدة، عبر الإنترنت. ولقد أسهم أفراد من عائلة حمادِة (Hamadeh) في لبنان، وهم أقرباء السعودي، في مساعدتنا على فهم تلك الحقبة من الزمن. لقد زوّدنا الحاج كامل (Hajj Kamel) بخبرته ومعرفته الواسعتين المتعلقتين بفريضة الحج، بينما منحنا الأب جان جاك بيرينيه (Jean Jacques Pérennès)، الإذن لاستخدام مكتبة معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان (Institut Dominicain d'Etudes Orientales) في العباسية (القاهرة)، دون قيد أو شرط. أما الدعم التقني القيّم الذي بُذل لترميم الصور الفوتوغرافية فكانت صابرينا إيزميرالدو (Sabrina Esmeraldo) مصدره الرئيس، كما أبدع أوندين بيريت (Ondine Perret) في استخدام الماسح الإلكتروني لتزويدنا بنسخة لأرشيف السعودي المكتوب والمصور، التي قام كل من باز العُمر(Paz Alomar) وكونشا روسيبو (Concha Rossello) بتجليدها ثم جمعها في صناديق. وأخيراً، وليس آخراً، يتقدم المؤلفان بالشكر لعُلا سيف (Ola Seif)، التي كانت مثالاً للصّبر، لما أظهرته من قدرة رائعة على استيعاب مطالبنا المتواصلة لرسم خرائط عديدة.



الطرق التي سلكها الحجاج نحو شبه الجزيرة العربية.



المقدمة

لقد كان من النادر جداً، حتى مطلع القرن العشرين، أن يقوم أي مصري أو حتى عربي بتأريخ رحلة الحج إلى مكة والمدينة المنورة عبر كتاب مطبوع أو بشكلٍ مرئي عبر الصور الفوتوغرافية. ولذلك، فإن مذكرات محمد علي أفندي السعودي، وملاحظاته المكتوبة، التي تم اكتشافها مؤخراً، بالإضافة إلى الصور الفوتوغرافية المصاحبة لها، جعلت منه شاهداً استثنائياً على رحلة الحج إلى مكة.

كان السعودي مسؤولاً ذا رتبة وُسطى في «الحقانية» أو وزارة العدل، وقام بمرافقة القوافل المصرية الرسمية المتجهة إلى مكة لأداء فريضة الحج في شتاء عام 1904، والشتاء الذي امتد بين عامي 1907 – 1908. لقد سافر السعودي إلى مكة في الفترة التي شهد فيها الشرق الأوسط تغييراً عظيماً، فلقد ضَعُفت سيطرة الإمبراطورية العثمانية، على نحو سريع، على كل من مصر وشبه الجزيرة العربية، بينما كانت تركيا، في الوقت ذاته، تشهد نشأة حركة الأتراك الشباب (The Young Turks) أو ما يعرف بتركيا الفتاة[1]، التي كانت على وشك أن تقوض النظام الحاكم السابق.

وُلد السعودي في القاهرة عام 1865، وكان يمثل طبقة المتعلمين التي ظهرت ضمن الطبقة الوسطى في مصر، ووقعت تحت التأثير الثقافي والاجتماعي والتكنولوجي الأوروبي، بالإضافة إلى التيارات الجديدة التي أفرزها الفكر القومي والإصلاحي في مصر. وعلى الرغم من سعي الإمبراطورية البريطانية آنذاك إلى ضمان الاستقرار السياسي في مصر، فإنها سمحت بقدرٍ من الجدل الفكري ولاسيما بين المعارضين للحكم العثماني من أمثال جمال الدين الأفغاني (Gamal Al-Din Al-Afghani). أُعجب السعودي بأفكار الأفغاني السياسية ومبدأ الإصلاح الديني الذي نادى به المعلم الشيخ محمد عبده (Abduh)، الذي قام بمصادقته.

(1) تركيا الفتاة (Jön Türkler) أو The Young Turks حركة ثورية انتشرت بين صفوف الطلاب العسكريين، ثم امتدت لتشمل قطاعات أخرى، وكانت معارضة للسلطة المطلقة للسلطان عبد الحميد الثاني، وأسهم قادتها الماسونيون في بناء واقع جديد للانشقاقات التي صاغت الحياة الثقافية والسياسية والفنية للإمبراطورية العثمانية في الفترة الأخيرة من عهدها. (المترجم)



الشاب السعودي: محمد علي أفندي السعودي بعد تخرجه، وقبل انضمامه إلى وزارة العدل.





السعودي يقف إلى جوار مُعلّمه، «الأستاذ» (Al-Ustaz)، الإمام الشيخ محمد عبده (Shaykh Muhammad Abduh)، الذي كان آنذاك مفتي مصر الأعظم، وقد طلب محمد عبده من تلميذه أن يكتب تقريراً عن العمارة الإسلامية في كل من مكة والمدينة المنورة، قبل مغادرته لأداء فريضة الحج عام ١٩٠٤.

جمال الدين الأفغاني، فيلسوف ومعلم وناشط مسلم، بالمعنى الشامل للكلمة، عارض الحكم العثماني. وكان للأفغاني تأثير كبير على السعودي الشاب.

وهكذا تمكن السعودي من الجمع بين أفكار المسلم الوَرِع ومشاهدات المفكّر الواعي المثقف، وفضلاً عن ذلك، كان السعودي مطّلعاً على تقليد الأوائل من العلماء الرحالة الأوروبيين أمثال السير ريتشارد بورتن[1] (Richard Burton) وجون لويس بوركهاردت[2] (John Lewis Burckhardt). لقد كان السعودي مولعاً بالدراسة لدرجة أنه اقتنى ترجمة مكتوبة بخط اليد لكتاب بوركهاردت **رحلات في شبه الجزيرة العربية**. ويشبه اهتمامه الصارم

(1) ريتشارد بورتن (1821–1890): مستكشف ومستشرق وعسكري ومترجم إنجليزي، اشتهر من خلال ترجمته كتاب ألف ليلة وليلة. وكان بورتن من الأشخاص غير المسلمين الذين حجوا إلى مكة والمدينة عام 1855. (المترجم)

(2) جون بوركهاردت (1784–1817): رحالة ومستشرق سويسري. كان الدين الإسلامي مثيراً بالنسبة إليه، وبخاصة عندما ذاع صيت الدولة السعودية الأولى في عام 1745، عندما أعلنت عدم شرعية خلافة آل عثمان. رافق بوركهاردت الحجاج الأفارقة إلى الشرق متنكراً بشخصية رجل مسلم ألباني اسمه الحاج إبراهيم. واشتهر بوركهاردت بإعادة استكشاف آثار مدينة البتراء. (المترجم)

بالتفاصيل، اهتمام العالِم المُصلح الذي جمع بين وعيٍ جادٍ للغاية وحِسٍّ عميق بالعدالة الاجتماعية.

من الواضح أن السعودي كان شديد الافتتان بفن التصوير الفوتوغرافي والحكايات التي روّجت لها تلك الصور الفوتوغرافية. ففي إحدى المراحل، وبعد أن قام بتصوير جبل النور[1] (Jabal Al-Nur)، حَيث نزل الوحي على النبي محمد للمرة الأولى، بآلة التصوير الخاصة به، قال السعودي: «آمل أن تترك هذه الصور الفوتوغرافية أثراً بارزاً لا يمكن نسيانه».

بدأت الأوضاع السياسية تتغير من جديد في شبه الجزيرة العربية في مطلع القرن العشرين. فسرعان ما استعدّ ابن سعود (Ibn Sa'ud) لاستغلال رابطة الإخوان الوهابيّة الأصولية لاحتلال شبه الجزيرة العربية وتأسيس المملكة العربية السعودية. وأدى تحمس الوهابيين المنشقين، برجوعهم نحو جذور إسلام «خالص»، إلى تدمير عدد من النصب التذكارية، التي قام السعودي بتأريخها عبر الصور الفوتوغرافية التي قام بالتقاطها. وبعد مضي سنوات طويلة، كان التقليد الاحتفالي المرتبط بالمحمل[2]



السعودي مع إبراهيم رفعت؛ أمير الحج، في القاهرة، وذلك بعد عودته من رحلة الحج الأولى في عام ١٩٠٤.

(1) يحتوي جبل النور الواقع بجوار مكة، على كهف حراء حيث ظهر جبريل عليه السلام أمام ناظري النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – للمرة الأولى. (المترجم)

(2) المحمل: اسم يطلق على الجمل الذي كان يحمل الهدايا أو الكسوة الموسمية إلى الكعبة، وقد كان السلطان الظاهر بيبرس سلطان مصر أول من احتفل احتفالاً

(Mahmal) قد اقترب من نهايته في أعقاب الثورة القومية العربية في مصر، التي قادها جمال عبد الناصر (Gamal Abd Al–Nasser). تكوّن المحمل من محفّة مغلّفة بالمخمل الأسود اللون المطرّز بخيوط ذهبية، وكان المحمل، حسب التقاليد القديمة، رمزاً لسلطة قوافل الحج المصرية. وأدى اختفاء هذا التقليد، إلى جعل سجلات السعودي الفوتوغرافية قيّمة للغاية، ولاسيما بعد مرور قرن من الزمان.

وفضلاً عما سبق، تغيرت الطبيعة المادية للحج ذاته، وذلك بسبب الطريق البحري الممتد من السويس حتى جدّة، الذي جعل وصول الحجاج المصريين إلى الأراضي المقدسة أسرع وأسهل مما شجع المزيد من الأشخاص على الخروج إلى الحج. لقد تضاعف عدد حجاج القوافل المصرية في الفترة الواقعة بين رحلة الحج الأولى التي قام بها السعودي، ورحلته الثانية التي اصطحب فيها والدته.

وباتت وسائل مكافحة الأمراض أكثر صرامة، كما سعت السلطات البريطانية إلى منع انتشار الكوليرا ناحية الغرب بسبب الحجاج المسلمين القادمين من الهند. وقد ظهر نوع جديد من البكتيريا المسبّبة للكوليرا في عام 1905 في إحدى محطات المحمل الواقعة في الطور[1] (Al–Tor) على ساحل سيناء، وقد اكتشف وجودها مجموعة من الأطباء الذين قاموا بفحص الحجاج العائدين من الأراضي المقدسة، ومازالت تلك الكوليرا تعرف حتى يومنا هذا بكوليرا الطور.

في تلك الأثناء، كانت الطريق البرية المؤدية إلى الأراضي المقدسة على وشك أن تشهد تغييراً جذرياً وذلك بسبب إنشاء خط سكة الحجاز الحديدية، الذي امتد من دمشق إلى المدينة المنورة (Medina)، واكتمل في عام 1908، وتم تدشين محطة المدينة بعد خمسة أشهر من مغادرة السعودي للأراضي المقدسة. وقد تم التخطيط في الوقت ذاته لتطوير مدى خط سكة

كبيراً بسفر المحمل من القاهرة إلى مكة، وأصبح المحمل تقليداً يقوم به ملوك مصر وسلاطينها كل عام ويشترك في الاحتفال الجيش وحرس المحمل ومرافقوه. (المترجم)

(1) الطور أو ما يعرف بطور سيناء هو عاصمة محافظة جنوب سيناء وتقع على بُعد 265 كم من نفق الشهيد أحمد حمدي على خليج السويس. (المترجم)



معدّات السعودي الفوتوغرافية، وقد أذِنت لنا شركة سوذبايز (Sotheby's)، في لندن، بتصويرها.



الحديد ناحية الجنوب ليصل إلى مكة. وقد أثار وصول سكة الحديد عدائية البدو، الذين خشوا خسارة الإيرادات القيّمة التي حصلوا عليها من الرسوم التقليدية التي فرضوها مقابل مرور الحجاج عبر أراضيهم.

عانى السعودي ورفاقه الحجاج من وطأة غضب البدو الذي أثاره مشروع سكة الحديد، فتعرّضت قوافل الحجاج المصريين للهجوم مرتين، وهي في طريقها إلى المدينة وعند عودتها كذلك. ويشكل وصف السعودي للرحلة تذكيراً حيوياً للمخاطر التي تعرض لها الحجاج، كما يعكس شجاعتهم الاستثنائية التي غذّاها إيمانهم العميق. لم يَعُد كل الحجاج إلى أرض الوطن. وعلى الرغم من سيطرة هذه الظروف البدائية على رحلة الحج، فإن السعودي يُعدّ رحّالةً «عصرياً» ويُعزا ذلك إلى أن كتاباته سلّطت الضوء في المقام الأول على الجوانب الاجتماعية والسياسية والإثنوغرافية للرحلة ومن ارتحلوا، وقد قام بتأريخها كذلك بواسطة آلة «معاصرة» ألا وهي الكاميرا. عدّ الرحالة أمثال السعودي واللّواء إبراهيم رفعت الجانب الديني للرحلة أمراً مسلماً به، ولذلك التزم كلاهما بتسجيل مشاهدتهما لطقوس الحج. كان محمد صادق (Mohammad Sadiq)، وهو مهندس في الجيش المصري، أول رحالة عربي مُعاصر، توجه إلى أرض الحجاز ثلاث مرات قرب نهاية القرن التاسع عشر، وقام بوصف هذه الرحلات في كتاباته بتفصيل شديد، وأرّخها عبر صور فوتوغرافية. ثم تبعه الطبيب صالح صبحي (Saleh Subhi)، وهو مسؤول مصري في وزارة الصحة قامت الحكومة بتفويضه لأداء فريضة الحج. ألف صبحي كتاباً بالفرنسية وصف فيه تجربته، وركّز في المقام الأول على قضايا الصحة، ونُشِر الكتاب في القاهرة عام 1894، مباشرة بعد أن أتمّ صبحي رحلة الحج الثانية.

وبالإضافة إلى السعودي، كان اللّواء إبراهيم رفعت باشا (Ibrahim Rif'at Pasha) —الرحالة المصري المعروف الذي لُقّب بأمير الحج (Amir al–Hajj)، وكان قائد القوات الحارسة للقافلة الرسمية، ومشرفاً بالكامل على الحجاج المصريين، وتمتع بهيبة واحترام كبيرين—

مسؤولاً عادةً عن مرور قافلة المحمل بسلام. وقد تولى إبراهيم رفعت هذا المنصب في عامي 1902 و1904، ومرة أخرى في الفترة الواقعة بين عامي 1907 و1908.

أتم السعودي رحلتي الحج الخاصتين به عندما كان جزءاً من حاشية الأمير الرسمية. كان السعودي في الرحلة الأولى مساعداً لأمين خزانة المحمل، الذي كان ثاني أهم شخصية بعد الأمير. وكان أمين الخزانة مسؤولاً عما قيمته ثلاثة وعشرين ألف جنيه مصري؛ أي ما يعادل اليوم خمسة ملايين دولار أمريكي، وقد ترأسّ مهمة توزيعها. قد يبدو هذا المبلغ ضخماً ولكن يجب علينا أن نتذكر أن القافلة المصرية تكونت من ألف وثمانمئة حاج يرافقهم ما يزيد على الخمسمئة جندي. قضت الحملة ستين يوماً في شبه الجزيرة العربية اضطرت خلالها إلى تأجير ألف وأربعمئة ناقة وجلب تابعين لتوفير خدمات للمعسكر ودفع رشاوٍ للمسؤولين وتخصيص مبلغ من المال لتجنب الحرب التي شنتها القبائل المعادية، وبات ذلك، تحديداً، أمراً ملحاً حين أصبح وصول سكة حديد الحجاز وشيكاً.

تمتع السعودي في رحلة الحج الثانية، بحرية تنقل أكبر من قبل، إذ عُيّن رسمياً كمصور مرافق لعَلي بهجت بيك (Ali Bahgat Bek)؛ أول عالم آثار مصري مسلم، ليقوم بتصوير النصب التذكارية والآثار القديمة في الحجاز. وقد أسهمت علاقة السّعودي بعَلي بهجت في توثيق صلة الأول بالسياسيين المصريين دُعاة التطور والتغيير.

تمكن السعودي منذ أن خرج لأداء فريضة الحج للمرة الأولى من تشكيل علاقة صداقة مع الأمير، ومن الواضح أن كليهما استمتع برفقة الآخر. وصف السعودي شخصية الأمير بلغة مفعمة بالحماسة، فنعته بالرجل «الصادق المستقيم». وقد ولّدت هذه الصداقة توتراً خطيراً هدّد علاقة السعودي بعلي بهجت، وتسبب ذلك في معاملة الأخير للسعودي معاملةً تشوبها المغالاة والتطرف.

ومن ناحية أخرى، كان لعلاقة السعودي بالأمير أثر إيجابي حيث زوّدته بالحماية

اللازمة لممارسة عمله كمصور. كان التصوير الفوتوغرافي عملاً خطيراً للغاية، وينطوي على مجازفة كبيرة، ويُعزا ذلك إلى شعور المسلمين بالارتياب وخشية الكثير منهم أن «تُسرق» صورهم. وقد وصف لنا السعودي في كتاباته حوادث عدّة اتهمه فيها رجال القبائل أنه قام بسرقة روح شخص ما، وتسبب في موته بسبب قيامه بتصويره. وعرّضته مهنته تلك أيضاً إلى اتهامه بأنه جاسوس يعمل لصالح الحكام في الدولة العثمانية أو لخدمة المصالح الإمبريالية للبريطانيين.

نتج عن وصف السعودي لرحلاته أربعة مجلدات من يومياته التي وصل عدد صفحاتها إلى مئتين وخمسين صفحة فولسكاب (ورق كبير القطع) كتبها بخط مصقول جميل، بالإضافة إلى العديد من الملاحظات. ولقد كتب معظمها بقلم الرصاص، عندما كان على ظهر الجمل مسافراً وقد جلس على الشاكداف (Shakdaf) وهو نوع خاص من المقاعد المخصصة للحجاج المسافرين على ظهر الجمال، ويتكون من إطار خشبي ثُبّت فوقه مقعد مُبطّن يفترش ظهر الجمل. ويجدر بالذكر هنا أنه من النادر أن يتمكن المسافر على هذا النوع من المقاعد من الكتابة بخطٍ أنيق أو حتى مقروء، ولم تكن طريق التنقل الصعبة هذه لتساعد على الحفاظ على ممتلكات المسافرين أيضاً. ولذلك، اضطر السعودي عند عودته إلى القاهرة إلى إعادة كتابة كل ملحوظاته التي تعذّر فهمها، وإلى استرجاع الكثير من الأحداث التي دونها غير أنها فُقدت في الطريق.

كلّف المفتي الأعظم، محمد عبده (Muhammad Abuh)، السعودي بتزويده بوصف مفصل للتاريخ الديني لكل الآثار المحيطة بالحرم، والمنتشرة في البقاع المقدسة في كل من مكة والمدينة، وكان هذا التكليف قبل أن يخرج السعودي في رحلته الأولى لأداء فريضة الحج. وعند عودته، سلّم السعودي نتائج رحلته لمحمد عبده، وخاطبه واصفاً إياه بمفتي الديار المصرية، فقال: «أقدم لك، بناء على طلبك، ما استطعت كتابته بقلم الرصاص في

هذه المرحلة، وسأزودك بما تبقى من معلومات بعد الانتهاء من كتابي الذي يتحدث عن رحلة الحج ووصف الحجاز، بإذن الله».

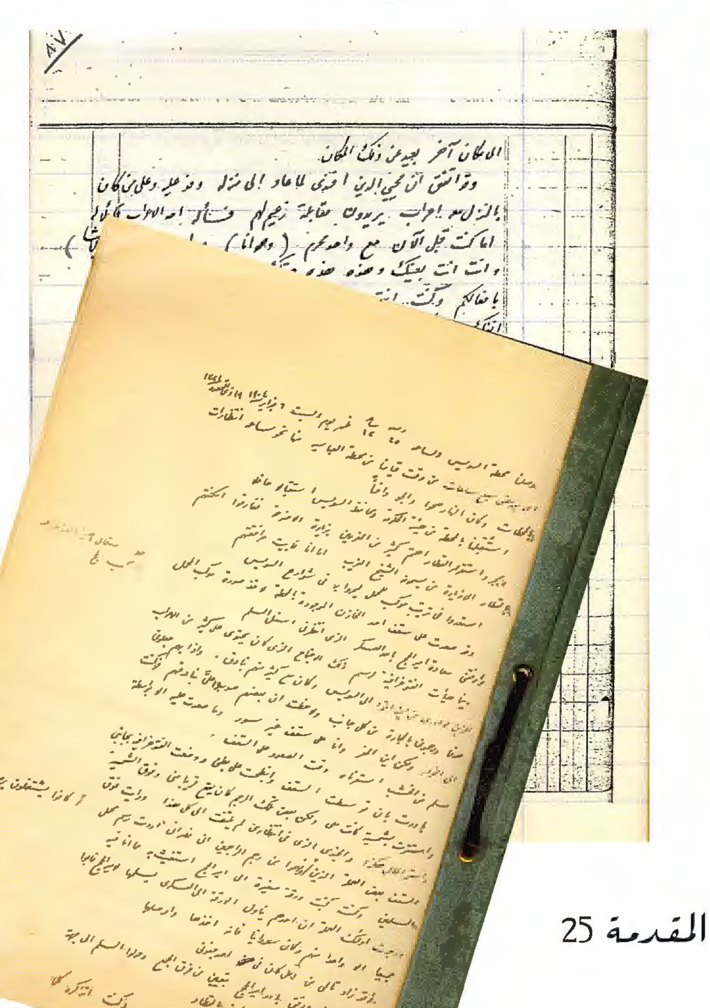
على أي حال، فارق محمد عبده الحياة في عام 1905، وبذلك فقد السعودي الرّاعي الرئيس لكتابه الذي اعتزم تأليفه آنذاك. وأوضح السعودي في مقدمة مذكراته الخاصة برحلة الحج الثانية، أنه يعتزم نشر كتابه حتى يتمكن أبناء بلده من تقدير المتعة والثواب الروحي المرتبطين

الشعار الخاص بالسعودي: «رسم محمد علي سعودي بمصر».

رسم محمد على سعودى بمصر

بالحج، بالإضافة إلى ما يشوبهما من شعور بالإحباط، إلا أن الكتاب لم يظهر إلى حيز الوجود مطلقاً.

استخدم السعودي يومياته المتعلقة بالحج مرجعاً للعديد من المحاضرات التي ألقاها. ففي عام 1919، على سبيل المثال، دُعِي السعودي إلى إلقاء محاضرة أمام الجمعية الجغرافية السلطانية (Société Sultanieh de Géographie) الموقرة، التي سبقت ظهور الجمعية الجغرافية الملكية (Royal Geographical Society)، وكان موضوع المحاضرة – التي حضرها عدد كبير من أصحاب المقامات الرفيعة مثل الأمير أحمد فؤاد (Ahmad Fu'ad)؛ ملك مصر المستقبلي آنذاك– مستكشفي شبه الجزيرة الأوائل. واستخدم السعودي المِسلاط (Projector) لعرض مجموعة من الشرائح، وركّز على الجانب الدنيوي لرحلته. وقد ظهرت الأحرف الأولى



توضح صفحة الفولوسكاب ذات الشريط الأخضر إحدى صفحات يوميات السعودي الخاصة برحلة الحج الأولى التي قام بها في عام ١٩٠٤، في حين تنتمي الصفحة المجاورة إلى يومياته الخاصة برحلة الحج، التي قام بها في الفترة الواقعة مابين ١٩٠٧ و١٩٠٨.

من اسمه، التي كتبها بخط اليد على العديد من صوره الفوتوغرافية، وذلك ليتمكن من حفظ حقه في التأليف والطبع والنشر، مما يوحي كذلك بأنّ السعودي عدّ نفسه مصوراً فوتوغرافياً محترفاً.

عبّر صديق السعودي؛ أمير الحج (Amir al–Hajj)، عن عزمه على نشر كتاب خاص به، وارتأى أن من غير الملائم أن يقوم السعودي بنشر كتابه أولاً. واستغرق الأمر ست عشرة سنة، حتى عام 1924، قبل أن يتمكن الأمير من نشر كتابه، الذي حوى وصفاً لرحلات الحج الثلاث التي قام بها، وظهر في جزئين وزُوّد، إلى حد كبير، بالعديد من الصور الفوتوغرافية والخرائط والرسوم التخطيطية. ولم يكن هناك سبب من شأنه تبرير تأجيل الأمير نشر كتابه. لكن، لعل الأحداث السياسية التي وقعت في الشرق الأوسط لعبت دوراً في ذلك، بسبب ارتباط كل من بريطانيا وفرنسا في التقسيم الاستعماري للإقليم عقب الحرب العالمية الأولى.

وقد وصف كتاب الأمير، بتفاصيل ملحوظة، كل جوانب الحج. واحتوى الكتاب على تقدير وافر لما قدمه السعودي من عون، واحتوت بعض الصور الفوتوغرافية على توقيعه. وعندها، كان السعودي في التاسعة والخمسين من عمره، وكان على وشك التقاعد من منصبه كخبير في النزاعات على الممتلكات، في وزارة العدل. ويمكننا أن نخمن السبب وراء عدم نشر السعودي لكتابه حينها، فلعله شعر أنه لا يوجد الكثير ليُضاف إلى الوصف الوافر الذي قدمه كتاب الأمير، أو أنه لم يكن بحاجة إلى المزيد من التقدير، أو ربما اجتمع السببان معاً. وعلى أي حال، إن كان هذا هو السبب حقاً، فيمكننا القول إن السعودي كان أكثر الرجال تواضعاً.

يمنحنا سرد السعودي فهماً رائعاً لعقلية شخص مرهف الشعور، قادر على التوغل في الروح الدينية العميقة للحاج الذي يقصد الأماكن الإسلامية المقدسة، في حين يبدو السعودي في الوقت ذاته مدركاً لفضائل من حوله، فضلاً عن عيوبهم ونقائصهم. ولا يعبّر السعودي عن إخلاصه العميق لإيمانه عبر نقاشه الطويل لمفهوم العقيدة الدينية بقدر ما يفعل عبر تعبيره عن

السعودي: الشيخ الوقور الطاعن في السن.



مشاعر الغضب والسخط حيال وضع الحج الذي ساد خلال الأعوام الأخيرة من عُمْر الحكم العثماني. حيث يكشف السعودي عبر مؤلفاته جميعها عن حسّ قوي بالعدالة الاجتماعية، عَبْر صوتٍ يعكس أحياناً نبرة شخص تقي وورع للغاية. فلطالما استنكر السعودي المعاملة السيئة التي يتلقاها الحجاج المساكين، كما انتقد بقسوة أنانية المجتمع وازدواجية أصحاب السلطة وجشعهم المخزي. وشعر السعودي بالأسى تجاه الاحتياطات الاحترازية التي اتخذتها الدولة لمنع انتشار مرض الكوليرا، التي عدّها غير كافية البتّة، إذ كانت الوفاة بفعل هذا المرض، من أعظم المخاطر التي واجهها الحجاج آنذاك.

يتحدث السعودي بإسهاب، دون أن يشعر بالحرج، عن الظروف المروّعة التي يعيشها الحاج، في مفكرته التي استخدمها للإعداد لمحاضرة ألقاها بعد عودته من رحلة الحج الأولى. يقول السعودي في هذا الشأن: «لقد انقضى ثلاثة عشر قرناً ولم يستغل المسلمون الفرصة لإعداد نظام من شأنه تسهيل السفر لأداء فريضة الحج». ولم تُجدِ المقالات التي نُشرت مجهولة المؤلف في صحيفة المؤيد[1] (Al–Mu'ayyad)، والتي يُعتقد أنها كانت من إنشاء السعودي ورفض فيها إساءة معاملة الحجاج، نفعاً.

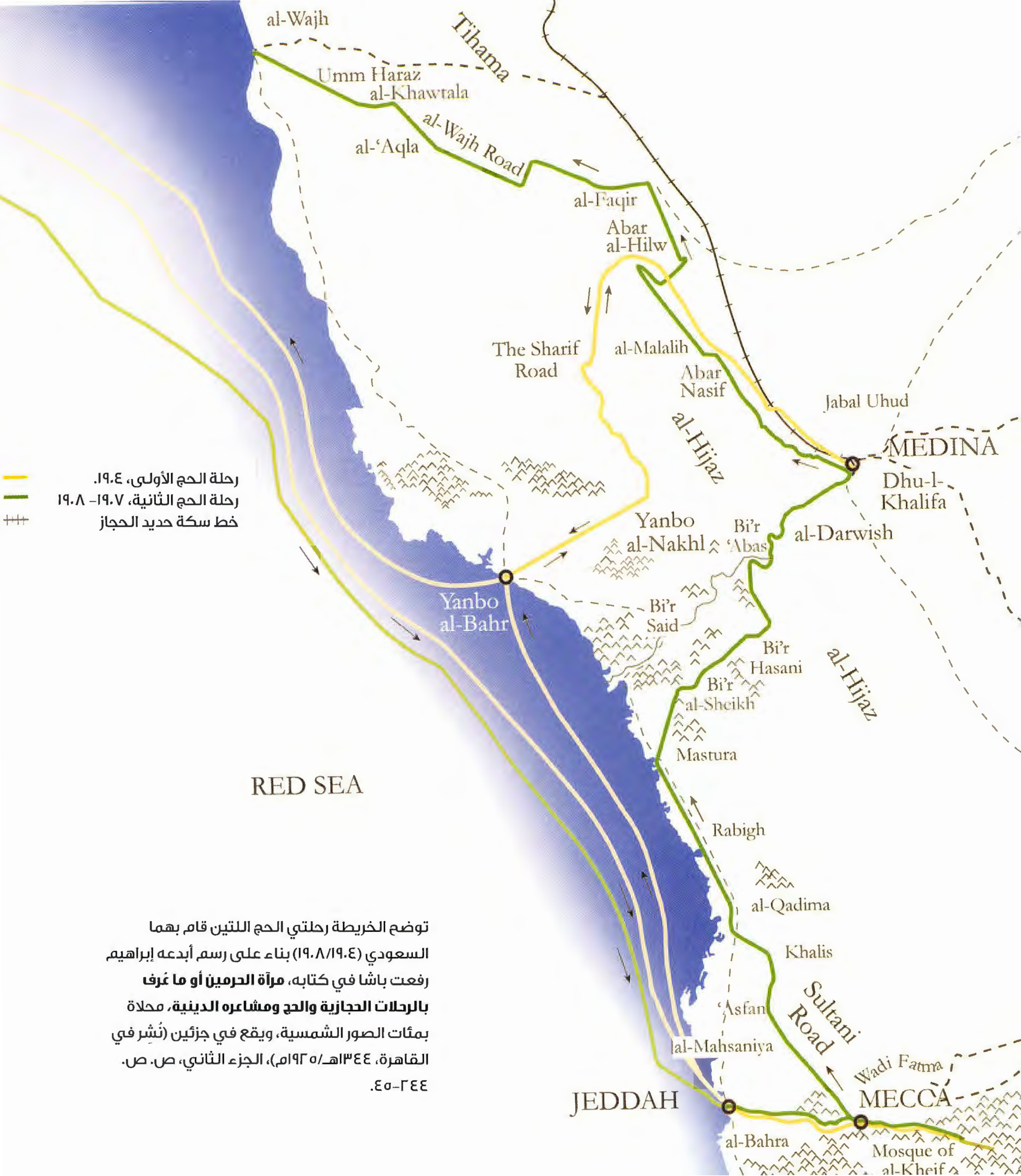
لعل هذه المشاعر ثبطت عزيمة السعودي فيما يتعلق بنشره كتاباً يحمل اسمه. ولعلّ السبب الأقوى يتعلق بالشجار المرير اللاّذع الذي نشب بين السعودي وعلي بهجت (Ali Bahgat) أثناء رحلة الحج الثانية. وينحدر علي بهجت، من عائلة إقطاعية ثرية ويجدر بالذكر أن نصف أصوله تركية، وقد تميز بقدرة رائعة على فهم لغات مختلفة، وكان شخصية بارزة بين المفكرين المصريين والمجتمع الأجنبي ذي النفوذ، الذي تمركز في القاهرة. وأصبح علي بهجت أول مدير مصري لمتحف الآثار العربية والإسلامية. وقد احتوت يوميات السعودي

(1) صحيفة المؤيد: صحيفة مصرية أسسها الزعيم السياسي والكاتب المصري مصطفى كامل عام 1889، وكان رئيس تحريرها الكاتب المصري الكبير علي يوسف، وعدت الصحيفة من أهم الصحف في الوطن العربي حتى توقف صدورها. (المترجم)

على وصف يخلو من المديح والإطراء لشخص علي بهجت الذي صوّره الأول رجلاً متعجرفاً سريع الغضب. وقد فارق علي بهجت الحياة في عام 1925. وعلى أي حال، ظلّ النقد اللاذع القاسي لهذا الرجل إبّان حياة السعودي أسير صفحات يوميات الأخير. أما السعودي، فوافته المنية في عام 1955، إذ فارق الحياة عن عمر يناهز التسعين.

ينصب اهتمام مؤلفيْ هذا الكتاب على رحلة الحج الأخيرة للسعودي حين اكتملت مؤلفات السعودي تقريباً، مما يمنح المؤلفين فرصةً لمواصلة سرد الحكاية دون انقطاع، بينما يتحدثان في الوقت ذاته عن الرحلة سابقة الذكر. حرص السعودي طوال رحلة الحج، على تسجيل التواريخ حسب التقويم الهجري والميلادي بدقة متناهية. ولقد قمنا باستخدام التقويم الميلادي لنكون أكثر وضوحاً، إلاّ إذا ذكرنا خلاف ذلك. أما رَصد الحج فاعتمد على التقويم القمري الإسلامي الذي يتكون من اثني عشر شهراً، ويبدأ في الفترة الواقعة بين اليومين السابع والعاشر من الشهر في التقويم الميلادي.

أما الصور الفوتوغرافية فتمّ التقاط معظمها، باستخدام كاميرا من نوع ستيريو – بالموس إيكا (Stereo – Palmos Ica)، وهي الكاميرا ذاتها التي تطورت عنها كاميرا ليكا (Leica) الألمانية الصنع (انظر كتاب **مُرشد الجامع للكاميرات الأثرية**، ويقع في ثلاثة أجزاء، ونُشر في عام 1981، البند الحادي والعشرين).



توضح الخريطة رحلتي الحج اللتين قام بهما السعودي (١٩٠٤/١٩٠٨) بناء على رسم أبدعه إبراهيم رفعت باشا في كتابه، **مرآة الحرمين أو ما عُرف بالرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية**، محلاة بمئات الصور الشمسية، ويقع في جزئين (نُشِر في القاهرة، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م)، الجزء الثاني، ص. ص. ٢٤٤-٤٥.

الفصل الأول

مغادرة القاهرة

كان محمد علي أفندي السعودي، كأي مسلم ورع، متلهفاً لإتمام واجباته الدينية والسفر لأداء فريضة الحج للمرة الثانية، غير أن هذا الموظف المدني المصري لم يكن حاجاً عادياً، فلقد أراد السعودي أن ينتج تأريخاً فوتوغرافياً وافراً لرحلته تلك، على الرغم من إدراكه أنها محاولة تنطوي على مجازفة كبيرة.

عانى السعودي خلال رحلة الحج الأولى، عام 1904، صعوبات ومخاطر جمّة ارتبطت بمحاولته الحصول على صور فوتوغرافية على الرغم من أنه كان تحت حماية إبراهيم رفعت باشا، أمير الحج الذي كان مسؤولاً عن البعثة المصرية، وفي شتاء عام 1907 – 1908، عندما سافر لأداء فريضة الحج للمرة الثانية، نَعِم السعودي كذلك بحماية أمير الحج ذاته. على أي حال، كان دور السعودي كمصور فوتوغرافي في هذه الرحلة أكثر شمولية، ذلك لأنه تعهد بمساعدة علي بهجت بيك؛ عالم الآثار الطموح الذي أصبح آنذاك المدير المساعد لقسم الآثار العربي في متحف القاهرة. وعلى الرغم من أن علي بهجت ارتبط ببعثة الحج المصرية الرسمية، فإن الحج بدا أمراً عارضاً أمام هدفه الرئيس الذي ينحصر في تأريخ آثار الحجاز العتيقة وكتابة شروحات تفصيلية عنها.

اعتقد بعض الأشخاص في القاهرة أن ارتباط السعودي بعلي بهجت لم يكن ارتباطاً بريئاً، فعندما كان السعودي على وشك المغادرة متوجهاً إلى الأراضي المقدسة، تمّ تحذيره بشأن شائعات تتهم كلاً من السّعودي وعلي بهجت باشا بكونهما جاسوسين للسلطات البريطانية الاستعمارية، وأنهما يتخفيان وراء القيام بالأبحاث لصالح قسم الآثار العربي. وقد وصلت هذه الشائعات إلى مسامع السلطات التركية وتحديداً إلى مختار باشا الغازي (Mukhtar Pasha Al–Ghazi)، المفوض السامي العثماني لمصر. ومن ثمّ، أُبلغ الخديوي عباس حلمي (Abbas Hilmi) بأمر تلك الشائعات، وعندها لم تتجاوز تلك الشائعات هذا الحد.

قبل مغادرة الحاشية الرسمية للقاهرة بيومين، باشر السعودي بتنفيذ مهمة دقيقة لإبطال هذه الشائعات. وكان قبل ذلك قد اتصل بشوقي باشا (Shawqi Pasha)؛ حاجب الخديوي، ليجهز رسائل للتعريف بالحملة رسمياً في الأراضي المقدسة،

واستغل السعودي هذا الاتصال فأسرّ شعوره بالقلق حيال تلك الادعاءات التي لا أساس لها والقائلة بكونه جاسوساً، إلى شوقي باشا. وافق الأخير على إثارة الموضوع أمام الخديوي ووعد بأنه سيشهد باستقامة السعودي. وعلى الرغم من أن السعودي لم يحظ بفرصة لمقابلة الخديوي شخصياً، فقد انتدب الأخير اثنين من أعوانه ممن كانوا موضع ثقته لمقابلة السعودي.

كتب السعودي في يومياته قائلاً: «أكّدتُ لمفوضيّ الخديوي أن تلك المهمة التي خرجتُ لإتمامها برفقة علي بهجت ليست ذات صبغة سياسية مطلقاً، وإنني بعيد كل البُعد عن السياسة».

نتج عن مناشدة السعودي لشوقي باشا حصول الأول على رسائل رسمية للتعريف به وبالحملة في الأراضي المقدسة، تحمل الختم الرسمي للخديوي، وكانت تلك الرسائل مجدية للغاية. وبعد ذلك مباشرة، منحت أعلى السلطات في الدولة المصرية ثقتها للسعودي، وأظهرت ذلك أمام العامة، لمواجهة الشائعات التي دارت حول ولائه، وهي التي أثارها «المفسدون»، كما أطلق عليهم السعودي في يومياته.

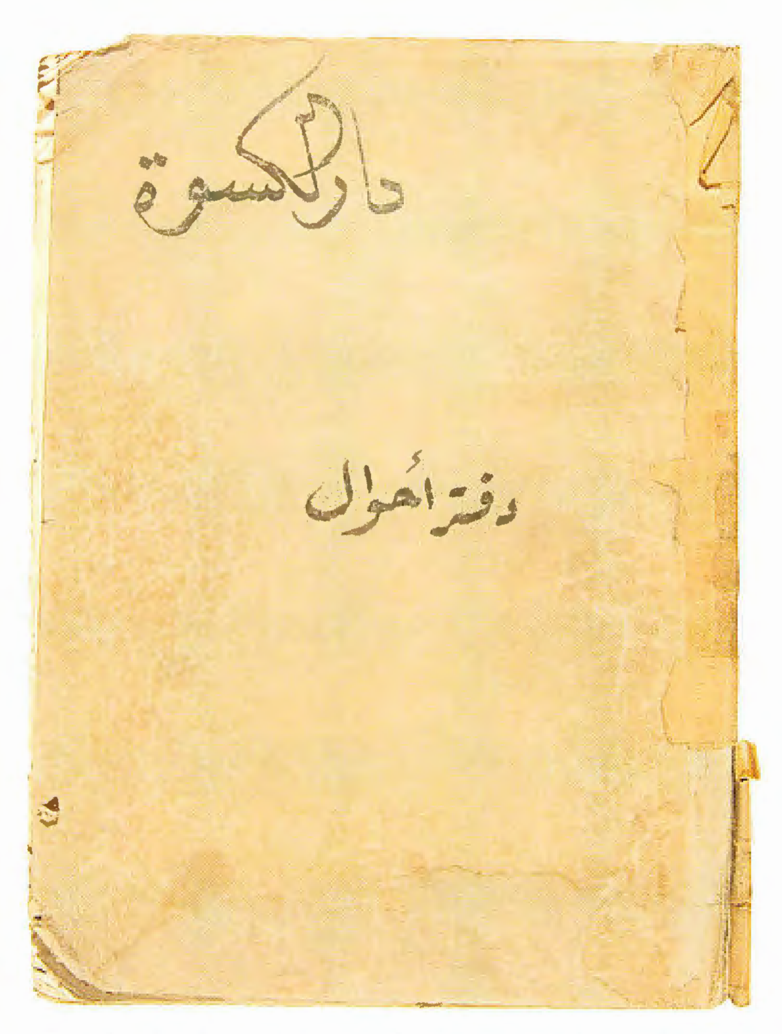


توضح هذه الصورة والتي تليها، المحمل وقد بات جاهزاً لمغادرة القاهرة. وترمز هذه المحفة إلى سلطة قافلة الحجاج المصرية وقد تمّ استعراضها بكل فخر في شوارع القاهرة. حيك الغطاء المزركش بخيوط ذهبيةٍ وهو مصنوع يدوياً في دار الكسوة (Dar Al-Kiswa) في القاهرة، وكان يُجدّد سنوياً.

وأثناء محاولة السعودي تبرئة اسمه، كانت مراسم الاحتفال بمغادرة الحملة إلى الأراضي



المقدسة قد بدأت بالفعل. ولعلّ أوج هذه المراسم تمثل في تكريم المحمل عبر حمله في شوارع القاهرة. وتكوّن المحمل من محفّة رائعة ذات إطار خشبي مفرّغ يرتفع للأعلى على شكل هرم، وقد لُفّ بأفضل أنواع المخمل الأسود المزركش بسخاء بخيوط ذهبية، وقد زُيّنت حوافه بالحرير الأخضر. ويحمل الجزء الخلفي من هذا الهرم الأحرف الأولى من اسم الخديوي الحاكم وقد حيكت بخيوط من الذهب أيضاً.



صورة دفتر أحوال غلاف مفكرة الحِرفيّ الذي يعمل في دار الكسوة (Dar Al-Kiswa)، وهو المكان الذي حاك فيه الحرفيون لأجيال عدة الكلمات المزركشة بخيوط ذهبية على قطعة من المخمل استُخدمت لتزيين جدار الكعبة والمحمل وكل ما رافقهما من حلية إضافية.

كان التقليد السائد آنذاك ينص على حَمْل المحمل على ظهر جمل ينحدر من أفضل سلالات الجمال الموجودة في القاهرة. وعبر العصور، اكتسبت هذه المحفّة أهمية خاصة، إذ باتت ترمز إلى دور الخديوي كحامٍ للأراضي المقدسة، وأصبحت أهمّ ما في الحملة المصرية ومحطّ عنايتها. وكان الاحتفال بالموكب الذي يتم من خلاله استعراض المحفة، وقد رافقتها قوات من الجيش وفرق موسيقية وأُطلقت العيارات والألعاب النارية لتحيتها، من أكثر الوقائع المقامة شعبية كل عام.

حزم السعودي أمتعته وجهّز نفسه لرحلة طويلة، وحَرص على حمل معدات التصوير الخاصة به، وإبقائها في مكان آمن لحمايتها من الكسر ولاسيما الألواح الزجاجية الهشة الخاصة بالصور السالبة (النيجاتيف). وحمل معه أيضاً الهدايا التي أحضرها بعض الأشخاص، في اللحظة الأخيرة، إلى منزل السعودي، ليمنحها لأصدقاءٍ لهم

في الأراضي المقدسة. وكتب السعودي واصفاً الأمر بنبرة حزينة: «اعتقدت أنني سأسافر وقد حملت معي أمتعتي فقط، ولكنني عادة ما أنتهي برزم عديدة، بعضها تحتوي على ما هو قابل للكسر، ذات أحجام مختلفة».

اضطر السعودي كذلك إلى الاعتناء بوالدته التي قرّرت أن تؤدي فريضة الحج بصحبة مربية السعودي المعروفة بمحبوبة (Mahbuba). وقد انتهت التحضيرات للرحلة في الساعات الأولى من الثالث والعشرين من كانون الأول، وتبع ذلك وداع محفوف بالمشاعر الجياشة لعائلة السعودي وأقاربه، ثم توجّه إلى محطة العباسية للسكة الحديدية التي تقع في القاهرة، وعندها حضرت إلى ذهنه أبيات من الشعر أبدعها ابن جُبير[1] (Ibn Jubayr)؛ الشاعر الأندلسي الذي عاش في القرن الثاني عشر، وأدى فريضة الحج للتكفير عن خطاياه:

« قضينا بزورته حجّنا وبالعمْرتين ختمْنا اعتمارا

إليك إليك نبيّ الهدى ركبت البحار وجبت القفارا

وفارقت أهلي ولا منّة وربّ كلام يجرّ اعتذارا»

بزغ الفجر قبل وصولهم إلى محطة العباسية وأسرع السعودي ليؤدي صلاة الفجر مع والدته ومربيته محبوبة. وفي المحطة، سرعان ما أحاطت بهم جموع الحجاج والجماهير المُنشِدة التي احتشدت لتشهد مغادرة المحمل للأراضي المقدسة. وبينما كانت فرقة تعزف أغاني الحجاز التقليدية، رُفِعت المحفّة فوق عربة شُيّدت خصيصاً لإتمام الرحلة إلى السويس عبر القطار. وبعد ذلك، تدافع الحجاج لإيجاد المقطورات الخاصة بهم. أما أمير الحج وحاشيته فشغلوا مقطورة خاصة (الصالون)؛ تلك التي تشغلها عائلة الخديوي، وتكون بعيدة عن مقطورات الحجاج المكتظة وغير المريحة.

---

(1) أبو الحسن محمد بن أحمد بين جُبير الكناني المعروف بابن جُبير: وُلد في بلنسية سنة 540هـ/1145م، وهو جغرافي ورحالة وكاتب وشاعر أندلسي. استدعاه الأمير أبو سعيد ليكتب عنه كتاباً وهو يشرب الخمر، فأرغمه على شرب سبع كؤوس من الخمر وأعطاه سبعة أقداح من الدنانير، لذلك صمم جُبير على القيام برحلة للتكفير عن خطاياه وأقام في سفره سنتين دوّن فيهما مشاهداته وملاحظاته في يوميات عُرفت برحلة ابن جُبير، وسميت باسم «**تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار**» وقد كتبها زهاء سنة 582ه/ 1186م. (المترجم)

وعلى امتداد معظم الرحلة المتجهة إلى ميناء السويس، اصطف القرويون وقد غمرتهم الرغبة بالاحتفال ومشاعر الإعجاب بالمحمل الذي يقبع في مقدمة القطار، على جانبي خط سكة الحديد. أما النساء فانتحبن مودعات الحجاج، وصعد بعض الرجال على ظهور خيولهم وعدوا مقتربين من القطار. «وكلما توقف القطار، بدأت الجماهير بإلقاء الطرابيش باتجاه قمة المحفة طلباً للبركة». وبعد الظهر، وبينما كان القطار يتحرك ببطء نحو محطة السويس، قام سلاح المدفعية بالترحيب به.

تعرّض السعودي للسرقة خلال الهرج والمرج اللذين صاحبا ترجل الحجاج من القطار، فقد سُرقت منه نقود فضية وذهبية كان قد احتفظ بها في الجيب الخلفي لبنطاله. نقل السعودي تلك الحادثة إلى الأمير، الذي قدّم بدوره شكوى إلى حاكم السويس. ونتج عن استنكار السعودي لوقوع هذه السرقة حصوله على استجابة ساخرة من البوليس السري الذي ردّ عليه بالقول: «اطلب من الباشا [أمير الحج] أن يعوّضك».

لم يكن لدى السعودي أي نية لطلب ذلك من الأمير وأقر أنه وجب عليه أن يتصرف بحذر أكبر خاصة مع انتشار العديد من النشالين بين الحجاج، ولكنه عوضاً عن ذلك انشغل بتجهيز المقطورات في السويس. قضى السعودي ووالدته ليلتهما برفقة محمد أفندي شاكر (Mohammad Effendi Shakir)؛ أحد ضباط الجمارك الذي تعرف عليه السعودي خلال زيارات سابقة، وقد سمح لهما بالاحتفاظ بأمتعتهما في سقيفة تابعة لقسم الجمارك بالقرب من الميناء وذلك لضمان سلامتها.

قام السعودي في اليوم التالي بابتياع بعض المؤن من أجل الرحلة التالية باتجاه جدّة، واستكشف في الوقت ذاته المنطقة. لاحظ السعودي أن الحجاج المسافرين في الدرجة الثالثة لم يتلقوا معاملة أفضل من تلك التي حصل عليها الحجاج سابقاً خلال رحلة الحج الأولى التي قام بها، فلقد تُركوا في العراء تحت وطأة الرياح والشمس، وانتظروا هناك طويلاً.

أبقى السعودي آلة الكاميرا الخاصة به بعيداً عن الأنظار وقد تبادرت إلى ذهنه حادثة مزعجة جرت في السويس عندما قام برحلة الحج الأولى عام 1904. أراد السعودي آنذاك أن يلتقط صورة للحجاج الذين تجمعوا بالقرب من رصيف الميناء، فاستخدم سُلّماً حتى يتمكن من الوصول إلى سطح سقيفة الجمارك. وفي تلك اللحظة، لاحظ مجموعة من الحجاج أنه يلتقط صوراً لهم فقاموا برشقه بالحجارة واتهموه بالكفر. اضطر السعودي إلى حماية آلة التصوير الخاصة به باستخدام مظلة كانت معه، ولم يُنقذه من هذا الموقف سوى الأمير الذي تدخل بوحدة من الجيش سعت إلى تهدئة الجماهير.

في هذه الرحلة، كان السعودي حذراً للغاية، ولاسيما بعد انتشار شائعات في القاهرة تتهمه بالتواطؤ مع علي بهجت، وأنهما جاسوسان للسلطة البريطانية. كتب السعودي قائلاً: «لقد جعلني التعصب المتزايد في أرض الحجاز ضد استخدام آلة التصوير الفوتوغرافي، كتوماً للغاية، ولذلك لم أحتفظ بآلتي بين أمتعتي الشخصية بل تركتها مبعثرة بين أمتعة الحجاج الآخرين حتى لا أُثير أي شبهة»، وإذا ما اعتُرض السعودي بسبب معدات التصوير الفوتوغرافي الخاصة به، فإنه سيفسر اقتناءه لها بأنه يستخدمها في إجراء دراسات أنثروبولوجية.

كان السعودي قلقاً كذلك بشأن علي بهجت الذي اعتزم رسم المواقع والمباني الأثرية، وبدا ذلك مشروعاً محفوفاً بالمخاطر. ولقد ذكّر السعودي صديقه علي بهجت قبل صعوده إلى السفينة، بضرورة أن يكون حذراً للغاية عند أدائه ذلك، فلقد اعتمد السعودي على تجربته السابقة فقال: «إن محاولة تأريخ أي شيء حتى ولو عبر الكتابة، تثير الريبة وقد تؤدي إلى الاعتقال».



الفصل الثاني

من السويس إلى جدة

في وقت متأخر من بعد ظهر الرابع والعشرين من كانون الأول، وعلى أنغام الفِرَق الموسيقية وصوت المدفعية المُودِّعة للحجاج، غادرت القافلة المصرية السويس على متن سفينتين متجهتين إلى جدة. لاحظ السعودي وجود ألف وثمانمئة وستة عشر حاجاً، ومن بينهم مجموعة حجاج مغاربة، ويرافقهم خمسمائة وعشرة جنود بالإضافة إلى طاقم السفينة. أما الأمير، وحاشيته فكانوا على متن المنيا (Al–Minya)، وهي كبرى السفينتين وبرفقته مجموعة كاملة تتألف من ألف وأربعمائة وسبعة وأربعين شخصاً.

قبل انطلاق السفينتين قام المسؤولون في الميناء بتفتيش كلتا السفينتين بحثاً عن أولئك الذين يختبئون للسفر بصورة غير مشروعة، ففي الماضي حاول الحجاج الفقراء السفر إلى الأراضي المقدسة مجاناً. ويخبرنا السعودي بأنه قبض على رجل يرتدي بزة عسكرية، خلال رحلة الحج الأولى، وبعد إبحار السفينة وُجدت جثة امرأة متفحمة كانت قد اختبأت خلف الأمتعة الموجودة عند حجرة المرجل.

عندما أبحرت سفينة المنيا في عرض البحر، ركّز السعودي على مشاعر الشوق الروحية العظيمة للحجاج، ولكن سرعان ما انتهى استغراقه في هذا التفكير الحالم بفعل الموسيقى الصاخبة و«رقص ثنائيّ شرير أساء التصرف». لقد لفت تصرف المرأة السوقي نظر السعودي في وقت مبكر عندما تم استعراض المحمل في السويس، وأخبره مرافقوه أن الرجل الذي كان يرقص مع المرأة يُطلق على نفسه اسم «الشاعر»، وأنه توسل إلى الأمير ليسمح له بمرافقة الحملة لأداء فريضة الحج حتى يُكفّر عن خطاياه، وأفيد أن المرأة التي بصحبته هي ابنته. لقد كان لدى السعودي تحفظات جسيمة بشأن علاقة الأب والابنة هذه، لكنه أدرك في الوقت ذاته أنه عاجز عن فعل شيء حيال ذلك، فما يبدو أن هذه المرأة الفاسقة قد استغلت حقيقة تمتعها بحماية رجل مسؤول بارز.

بعد مضي اثنتي عشرة ساعة، تحسن مزاج السعودي عندما رست سفينة المنيا، بعد عبور هادئ باتجاه ساحل سيناء، بعيداً



إحدى السفينتين البخاريتين وقد رست بعيداً عن الشاطئ بالقرب من محطة الطور، خلال رحلة الحج الأولى التى قام بها السعودي عام ١٩٠٤. لقد كان المرفأ صغيراً، ولم يتسع للسفن الكبيرة الحجم، لذلك كان لا بد من نقل الحجاج إلى رصيف الميناء عبر المعديّة.

المحجر الصحي في محطة الطور (Al-Tor) على ساحل سيناء المصري حيث أُجبر الحجاج على التوقف فترة قصيرة خلال رحلتهم المتوجهة إلى الأراضي المقدسة، ولمدة أربعة أيام عند عودتهم من الحج، وذلك لتفادي انتشار الكوليرا.

عن الحَيْد البحري[1] الموجود في ميناء الطور. كانت تلك المحطة التي يوجد فيها المحجر الصحي حيث أُجبر جميع الحجاج المسافرين بحراً على التوقف خلال رحلتي الذهاب والعودة. لقد أجبرت المخاطر المهددة للصحة والمصاحبة لرحلة الحج، ولاسيما مرض الكوليرا المعدي والفتاك، السلطات على فرض إجراءات لمنع العدوى والتلوث. كانت فترة الحجر الصحي مهمة على وجه الخصوص خلال رحلة العودة بسبب العدوى المحتملة بفعل الحجاج القادمين من شبه القارة الهندية حيث تنتشر الكوليرا بينهم عادة. وخشيت الحكومة البريطانية أن الإجراءات غير الأمينة قد تؤدي إلى انتشار المرض غرباً باتجاه أوروبا.

توجه الطبيب زكريا ديس بيك (Dr. Zakaryadis Bek)، مدير محطة المحجر الصحي، إلى سطح السفينة قبل مغادرة الحجاج لها حتى يرحب بالأمير. ولحظة وصول السعودي إلى

(1) سلسلة صخور قرب سطح الماء. (المترجم).

اليابسة، كان يتفحص أدوات التصوير الخاصة به بلهفة شديدة خوفاً من تعرضها للتلف عندما تم تعقيم أمتعة المسافرين بآلية التدخين. ولحسن الحظ، أكدّ الطبيب زكريا ديس للسعودي أن أمتعته لم تتعرض لعملية التعقيم تلك.

انضم الطبيب سليمان بيك حمادة (Dr. Sulayman Bek Hamadeh)؛ مفتش الصحة الإقليمي، وهو دُرزي درس الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت، إلى حاشية الأمير. ثم اجتمع الأعضاء الأعلى مقاماً في البعثة المصرية للاستماع إلى مدير محطة الطور الذي ألقى محاضرة عن مخاطر الكوليرا. حيث أصرّ مدير المحطة أن على الأمير أن يحذّر الحجاج من إحضار عبوات ماء زمزم من مكة أو ما يُؤكل مثل التمر من المدينة المنورة. وأضاف مدير المحطة محذراً أن كل هذه الأشياء سيتم مصادرتها وإتلافها. وأضاف مدير المحطة قائلاً بحدة واضحة: «إن امتنع الحجاج عن إنفاق أموالهم على هذه البضائع، فسيتمكنون من إنفاقها على إجراءات وقائية مثل غَلْي الماء». تلت ذلك جولة لمشاهدة أجهزة المحطة، وسُمِح للسعودي بمراقبة الإجراءات الوقائية المتبعة، وسَرّه ما رأى من تحسينات لافتة للنظر.

بدأت عملية التعقيم برُكّاب الدرجة الثالثة الذين وُجّهوا إلى السقيفة الخشبية حيث مُنح كلّ واحد منهم جلاّبية (Gellaba) دافئة من صوف الفلانيلّة لارتدائها، ثم وُضعت ملابس كل ثلاثة أشخاص داخل أكياس حشرت بدورها داخل إسطوانات معدنية (سيليندر) وعند الانتهاء من هذه العملية أُغلقت الأسطوانات بإحكام ثم عُقمت من خلال حقنها ببخار مُكَبْرت[1].

في تلك الأثناء، استحم الحجاج باستخدام صابون مطهّر ثم انتظروا تحت ضوء ما، وكانت أعدادهم كبيرة، بانتظار أن يتم إرجاع ملابسهم إليهم. وعند انتهاء العملية بأكملها عاد الحجاج إلى قواربهم.

كتب السعودي واصفاً الأمر فقال: «في الماضي، عومِل الحجاج بقسوة إذ تم تعقيم ملابسهم

(1) مُكبرت: أي يتم معالجتها وتعقيمها بالكبريت. (المترجم)





المسؤولون المصريون في محطة الطور. يبدو السعودي واقفاً (أقصى اليسار) خلال رحلة الحج (١٩٠٧/١٩٠٨). يجلس في الوسط اللّواء رفعت، أمير الحج، وقد أحاط به أطباء ومسؤولون من وزارة الصحة.

بطريقة فوضوية غير منظمة. وتُرك الحجاج ليتجمدوا من البرد بعد أن قاموا بالاستحمام ومن ثمّ «التقطوا العديد من الأمراض المعدية التي رافقتهم خلال سفرهم».

استرجع السعودي تجربته السابقة عندما أُصيب العديد من الحجاج بالديزنتاريا وأمراض أخرى نتيجة هذه المعاملة القاسية في محطة الطور. على أي حال، لم تكن ظروف التعقيم التي قام المسؤولون بتطويرها، مثالية بالمعنى الحرفي للكلمة. فلقد «قام عدد من حجاج الدرجة الثالثة بالتهرّب من عملية التعقيم تلك، لأنهم لم يستطيعوا تحملّ رسوم المحجر التي فرضتها المحطة».

استغل السعودي وجوده على اليابسة مدة سبع ساعات، فأرسل بعض الرسائل إلى أقاربه، ذلك أن محطة الطور تعد إحدى محطتين وحيدتين في سيناء تحتويان على التسهيلات البريدية والتليغرافية. وأرسل الأمير كذلك برقية إلى «جدّة» كي يستأجر ألفاً وأربعمائة جمل، لتستخدمها القافلة المصرية.

وعندما أبحرت السفينة، عاد السعودي ليفكر بالحج، واستأنف قراءته لابن تيمية (Ibn Taymiya)؛ العالم المسلم الذي درس السنة الشريفة في القرن الرابع عشر، وكان واحداً من أتباع ابن حنبل (Ibn Hanbal)، الذي سعى إلى إرجاع الإسلام إلى جذوره الحقيقية. ثم حاول السعودي أن يُشرك رفاقه من الحجاج في نقاش حول مزايا كتاب ابن تيمية، الذي هو أشبه بموسوعة تناقش فريضة الحج. أثار هذا النقاش الكثير من الجدل الجاد الذي صاحبته تعليقات هوجاء مُزعجة ذكرت السعودي بالجدل غير المقنع الذي كان يدور في الأزهر الشريف آنذاك.

تعكس يوميات السعودي أنه لم يكن على استعداد للخوض في جدل أو خلاف ديني، فبعد النقاش الذي دار على ظهر السفينة والمتعلق بابن تيمية، كتب السعودي معبّراً عن رغبته الشديدة في تفسير خطبة الوداع، التي ألقاها محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل وفاته،

على نحو واف. وعلى أي حال، قال السعودي إنه لن يعلّق على الجدل الدائر حول الروايات المختلفة لخطبة الوداع. وفي موضع آخر كتب السعودي قائلاً: «بينما تجول أفكاري داخل هذه المتاهات الشاسعة وأحاول جاهداً التشبث بعملية إصلاح التفكير الديني حتى يتمكن الناس من العودة إلى الدين الحقّ، لاحظت أن إيديولوجيات متباينة تستمر في الظهور عند كلّ نقاش. وأخلص إلى القول إنه من غير المحتمل أن يرجع الناس، الذين تشبعوا بأفكار مختلفة، إلى الدين الخالص النقي».

أدرك السعودي أن رفاقه المسافرين لم يكونوا مهتمين بأي نقاش جاد حول الموضوع ذاته، واستمر الجدل على نحوٍ متقطع حتى واجهت السفينة أمواجاً عاتية. لقد أصابت حركة السفينة المتأرجحة السعودي بغثيان البحر، فلجأ إلى الطبيب للحصول على العلاج. وعلى الرغم من ذلك، شقّت سفينة المنيا طريقها ببُطء، وشعر السعودي ببعض الارتياح عندما علم أنها تقترب من الأراضي المقدسة.

انصب تفكير السعودي، في تلك اللحظة، على البقعة التي أحرم منها محمد – صلى الله عليه وسلم – عندما أدى فريضة الحج التي سبقت وفاته مباشرة. ويعدّ الإحرام حالة التطهر التي يعيشها المسلم قبل عبور الميقات (Miqat)، أو المحطة التي تعدّ نقطة البداية الرسمية لمراسم الحج. لقد كانت هذه



كان السعودي متردداً بشأن التقاط صورة له وقد ارتدى ملابس الإحرام غير المخيطة التي تشير إلى حالة التطهر لدى المُحرِم. التُقِطت هذه الصورة في أحد استوديوهات القاهرة، ثم أُلصِقت مقابل إحدى صفحات يومياته وكتب السعودي بجوارها «صورة المُحرِم».



(إلى اليسار) علي بهجت بيك (Ali Bahghat Bek)؛ مساعد أمين المتحف الإسلامي في القاهرة، (في الوسط) الطبيب محمد حسين (Mohammad Hussein)؛ نائب القنصل البريطاني في جدة، وكامل بيك صبري (Kamil Bek Sabri)؛ حاكم مصري. كان الطبيب حسين، وهو هندي مسلم، مصوراً فوتوغرافياً متحمساً، وكان مسؤولاً عن العدد الهائل من الحجاج الهنود القادمين من شبه القارة الهندية. تعاقد علي بهجت مع السعودي ليلتقط الأخير صوراً للأماكن الأثرية الإسلامية خلال رحلة الحج التي قام بها كلاهما في عام ١٩٠٨/١٩٠٧، إلا أنهما سرعان ما تشاجرا، وعلى إثر ذلك عاد علي بهجت إلى مصر في وقت مبكر، ولم يشارك في الرحلة المتوجهة إلى المدينة المنورة.

اللحظة حيوية ومهمة بالنسبة إلى السعودي عندما أدى فريضة الحج للمرة الأولى، أماّ في هذه الرحلة، فقد قرّر السعودي أن يبدأ إحرامه وهو مايزال مبحراً على ظهر السفينة.

وبأسلوب منهجي منظم، قام السعودي بحساب الوقت اللازم للوصول إلى البقعة التي يقصدها، ألا وهي ذو الحليفة[1]

(1) ذو الحليفة: ميقات أهل المدينة المنورة ويُطلق عليه كذلك أبيار علي، وهو أبعد المواقيت عن مكة المكرمة ويقع اليوم ضمن المدينة المنورة، ويكتبها المؤلفان بالخاء. (المترجم)



صورة رائعة لطفلة هي بالتأكيد ابنة الطبيب حسين، نائب القنصل البريطاني في جدة، الذي كان هندياً مسلماً. تبدو الطفلة وقد جلست على كرسي. وفضلاً عن ابنة اللّواء رفعت، التي رافقت والدها في رحلة الحج الأولى ١٩٠٨/١٩٠٧، كانت ابنة الطبيب حسين الأنثى الوحيدة التي قام السعودي بالتقاط صورة فوتوغرافية لها. (مجموعة صور خاصة بالمكتبة الفريدية (Egyptophiliabooks))[1]

(Dhu-l-Khalifa)، وتقع بالقرب من المدينة المنورة، فقدّره بأربعة وعشرين ساعة تقريباً. ثم قام بالتحقق من نتائجه بوساطة ربان السفينة الذي سمح له برؤية الخرائط ووافق على إبلاغه لحظة وصول السفينة إلى البقعة المقابلة للميقات، وهي جزء من اليابسة أيضاً.

منحت هذه الساعات الأربع والعشرون السعودي وقتاً كافياً لتجهيز نفسه لما يعدّ البداية الروحية الحقيقية لفريضة الحج. وعندما حانت لحظة الإحرام، اغتسل السعودي ثم ارتدى رداء أبيض بسيطاً وجب لبسه للدخول في حالة الإحرام الطاهرة. وجّه السعودي كذلك كلاًّ من والدته وعلي بهجت لأداء الشيء ذاته، وقام بذلك آخرون أيضاً. كما اعتقد السعودي أن الحاج يقترب من النبي محمد عندما يبدأ الإحرام في هذه البقعة وفي هذه اللحظة المبكرة.

وإذا وضعنا مسألة الورع والتقوى جانباً، فقد أدرك السعودي أن هذا الإحرام المبكر يُجنّب الحجاج، من ناحية، عملية التزاحم على دورات المياه. فلقد توافرت دورة مياه واحدة لكلّ من الرجال والنساء من مسافري الدرجة الأولى والثانية للاغتسال، أما بقية الحجاج فوجب عليهم الاصطفاف والانتظار للحصول على مياه ساخنة من المطابخ. اضطر هؤلاء المسافرون الفقراء إلى المناضلة للحصول على المياه، ويذكر السعودي كيف قام يوناني شرقي،

(1) المكتبة الفريدية: مركز يحتوي على معظم الكتب الأثرية المصرية وله مدوّنة إلكترونية. (المترجم)

عديم الضمير، وكان مسؤولاً عن المطابخ خلال رحلة السعودي الأولى، بإجبار الحجاج على دفع خمسة قروش مقابل دلو واحد من مياه البحر المقطرة. وقام هذا اليوناني أيضاً بذبح بقرة مريضة في السويس ثم استخدم لحمها لتحضير أطباق قدّمها في مقاصف السفينة.

أعلن الحاجب الرسمي للمحمل عن وصول السفينة إلى موقع رابغ[1]، وهو الميقات المكاني المعتاد الذي يحرم منه الحجاج المصريون. ولحظة سماع الحجاج لهذا الإعلان، تهافتوا للاغتسال وتبديل ملابسهم.

هدأ البحر في اليوم التالي وكلما توغلت السفينة جنوباً، أصبح الطقس أكثر دفئاً. أُعجب السعودي بالمساواة التي اتّسم بها الحجاج الذين ارتدوا جميعاً الرداء الأبيض ذاته، ويتكون من قطعتي قماش منفصلتين وغير مخيطتين، تُلَفّ إحداهما حول الجزء السفلي من الجسم أما الأخرى فتُلف حول الكتفين لتغطيهما. ثم ظهرت معالم جبال الحجاز الوعرة، في الأفق و«بدت السماء من فوقها مثل قبة زرقاء».

مكّنت مياه البحر الهادئة، في الساعات المبكرة من بعد ظهر السابع والعشرين من كانون الأول، من تمييز حدود جدّة البعيدة، وسرعان ما أصبح المناخ أكثر اعتدالاً. كتب السعودي واصفاً مشاعره فقال: «يدفعك هذا المناخ إلى نسيان كلمة «شتاء» فتتخيل أنك خرجت في نزهة صيفية على متن السفينة».

رست مرساة سفينة المنيا بالقرب من جدّة بينما أُطلقت إحدى وعشرون طلقة من على ظهر السفينة الخاص بالدرجة الأولى احتفالاً بوصول الحجاج إلى اليابسة. وقد دفع الفضول السعودي إلى سؤال ربان السفينة عن المسافة الفاصلة بين السويس وجدّة، فأخبره أنها إذا ما قيست في خط مستقيم فإنها تبلغ ستمائة وأربعة وثلاثين ميلاً بحرياً؛ أي ما يعادل ألفاً ومئة وأربعة وسبعين كم.

---

(1) تشير الخريطة التي أوردها اللواء رفعت في كتابه **مرآة الحرمين** إلى أن رابغ كانت ميقات أهل الشام ومصر. ولذلك يعتقد المترجم أن المؤلفين أخطأ في كتابة الاسم بالإنجليزية فهو **Rabigh** وليس **Ghabir**. (المترجم)

لم يتسع المرفأ للسفينتين الكبيرتين اللتين حملتا على ظهريهما الحجاج ومن رافقهم من العسكريين. ولذلك، كان لا بد من نقل الحجاج وأمتعتهم عبر البروج[1] وقوارب استُخدمت فيها المجاديف للوصول إلى رصيف ميناء جدّة حيث يوجد المحجر الصحي.

صعد مفتش الصحة ومساعدوه إلى ظهر السفينة قبل نقل الحجاج باستخدام القوارب. لم يرضَ السعودي عن طريقة أدائهم لوظيفتهم: «لم يبدوا أي اهتمام بصحة الركاب المسافرين، بل كان جلّ اهتمامهم جمع جوازات سفرهم ورسوم المحجر الصحي».

اقترح الأمير على المسؤولين في جدة، اعتماداً على تجربته السابقة، أن تُجمع الرسوم المختلفة في آنٍ واحد لتوفير الوقت، وأن تُطبق تعرفة ضريبية معيارية حتى لا يقلق الحجاج طوال الوقت حيال الحصول على فكّة. وبينما راقب الأمير المسؤولين وهم يؤدون عملهم، خلص إلى القول إن معدل الوقت اللازم لجمع الرسوم من كل شخص هو خمس دقائق، ومن ثمّ فإن الوقت اللازم لجمع الرسوم من ألفين وأربعمائة مسافر، قد يصل إلى ثلاثمائة وثلاث وستين ساعة من العمل المتواصل.

بقي المسافرون على ظهر السفينة طوال الليل، ولم يبدأ العمل المضني الذي يتلخص في نقل الركاب وأمتعتهم إلى الشاطئ إلاّ في اليوم التالي. سُرّ السعودي عندما وطأ رصيف الميناء لوجود شقيق إبراهيم أحمد خربوطي (Ibrahim Ahmad Kharbuti) بانتظاره. كان إبراهيم خربوطي صديقاً مخلصاً للسعودي، وعندما علم بأمر وصول الأخير أرسل شقيقه للترحيب به.

وحين انتهت عملية الترحيب، أبدى السعودي قلقه حيال ممتلكاته، ولاسيما أدوات التصوير الفوتوغرافية، التي قام بتوزيعها بين أمتعة المسافرين لتحاشي الوقوع في مشاكل مع مسؤولي الجمارك. «قام حمّالوا الميناء بإنزال الأمتعة بطريقة عشوائية، وتعاملوا مع الحقائب باستهتار إذ قاموا بإلقائها على الأرض بعنف دون إبداء أي اهتمام تجاه محتوياتها».

---

(1) البروج ومفردها البَرْج (Barge): مركب لنقل البضائع. (المترجم)

تحطّمت بعض الحقائب، وفقد علي بهجت حقيبة احتوت على طرابيش خاصة به. وكان أحد الطرابيش المفقودة للسعودي الذي حزن بسبب ذلك، فارتداء الطربوش يشير إلى المنزلة التي يحتلها المواطن المصري. أما الخدم المرافقون للمسافرين الأثرياء، الذين لم تكن لديهم معرفة بكيفية تنفيذ الإجراءات في جدة، فوقفوا لا حول لهم ولا قوة، يراقبون عملية إنزال أمتعتهم دون نظام. ابتهل السعودي إلى ربّه حتى لا تتحطم الهدايا التي أُؤتمن عليها في القاهرة، حتى يقوم بتسليمها إلى أصحابها.

استمرت عملية إنزال الأمتعة حتى منتصف النهار وعندها قرر الأمير التحرك إلى بقعة خارج نطاق البلدة المخصصة لتخييم القافلة المصرية. شعر السعودي أنه مُلزم باللحاق بالحاشية على الرغم من أنه فقد الاتصال مع علي بهجت. لم يحمل السعودي سوى مقتنياته الضرورية، إلاّ أن المشي كان مرهقاً بعد أيام قضاها السعودي مُبحراً من مصر إلى جدة، وتغلغل الرمل داخل صندله فتسبب بكشط أصابع قدميه.

وصل السعودي إلى المخيم مع غروب الشمس، ليجد أن الاستعدادات لاستقبال قافلة الحجاج كانت ضئيلة للغاية. لم يصل أي من رفاق السعودي إلى المخيم بَعْد، ولم تُنصَب سوى ثلاث خيام كانت إحداها الخيمة الخاصة به. وبمجرد أن استقرت النساء في الخيمة الخاصة بهن (الحرملك) لقضاء الليل، توجّه السعودي صوب الشاطئ للبحث عن أمتعته ورفاقه. وفي ظلمة الليل، التقى السعودي صدفةً بعلي بهجت الذي أبلغه أنهما قد يضطران إلى الانتظار حتى حلول الصباح لإيجاد أمتعتهما.

وفي صباح اليوم التالي، عاد السعودي برفقة علي بهجت إلى المرفأ لتنظيم مجموعة الحجاج المسافرين ونقل أمتعتهم. عمل عدد كبير من الحمّالين بكدٍّ وجهد وسرعة فائقة لحظة أن تمّ استئجارهم لنقل الأمتعة: «كان من الصعب اللّحاق بهم فلقد بدوا يتسابقون مثل الحمام الزّاجل».

وبعد أن أمّن أمتعة القافلة، قام السعودي بتدبير الشاكداف وهو مقعد خشبي فسيح يُثبّت على ظهر الدّابة، عوضاً عن السرج البسيط، وعلى جانبيه تظهر سلتان كبيرتان. يحمل الشاكداف راكباً واحداً أو راكبين، وعندها تُملأ السلة الفارغة المتبقية بالأمتعة الخاصة بالراكب لتحقيق التوازن. أما الأطواق المثبتة بالسلتين فتدعم غطاء يحمي الراكب من حرارة الشمس والمطر على حدّ سواء. أدرك السعودي، اعتماداً على خبرته، أن الشاكداف كان ضرورياً لضمان راحة المسافرين وسلامتهم.

أحضر السعودي نموذجاً للشاكداف، في المدينة، حتى يراه رفاقه. على أي حال، ترك السعودي الشاكداف في الخارج دون أي حراسة بينما استدُعِي ليتحدث مع الأمير، وعندما عاد وجد أنه سُرق. وبعد تحرٍّ طويل وجد السعودي الشاكداف من ضمن مقتنيات أحد الحجاج المرافقين للحملة. ادعى الحاج، ببساطة، أنه ابتاع الشاكداف، فاضطر السعودي إلى مساومة الرجل بعزم حتى تمكن من استرجاعه.

قام السعودي فيما بعد بابتياع شاكداف لوالدته وآخر لخادمتها، لكن علي بهجت رفض أن يبتاع شاكدافاً لخدمه، ولم يتأثر مطلقاً بحجة السعودي المنطقية: «إذا وصل الخادم إلى الوجهة المقصودة وقد نال منه التعب والإنهاك، فلن يتمكن من خدمتك كما يجب». أغضب عدم اهتمام علي بهجت بمصلحة الخدم مقابل توفير المال السعودي، فقال: «يا له من رجل جَشِع وبخيل للغاية!».

ظلّ العديد من الحجاج المصريين يتجولون في أرجاء المخيم بحثاً عن أمتعتهم، طوال الأربع والعشرين ساعة بعد وصولهم إلى الشاطئ. وعلى الرغم من ذلك، كان الأمير واثقاً أن الحجاج سيجدون كل مقتنياتهم المفقودة في الوقت الملائم. وقدّر السعودي الزيادة في عدد حجاج القافلة عن عددهم في رحلة الحج السابقة بألف حاج تقريباً، مما قد يفسر المشاكل المتعلقة بفقدان الأمتعة.

وبينما جازف السعودي في التوغل في قلب جدة، صادف محمد أبو حُميدي (Muhammad Abu Humaydi)؛ الرجل المسؤول عن إمداد الحجاج المصريين بالجمال، الذي وعد السعودي بتأمين أفضل سلالة من الجمال. وساورت الشكوك السعودي بشأن هذا اللقاء حيث اعتقد أن أبا حميدي دبّره متعمداً، لأن الأول وجد أن السكان المحليين كسولين وانتهازيين. قال السعودي في هذا المقام: «لا يُرحّب أي شخص بك في هذا المكان إلا إن كانت لديه دوافع ملحة خفيّة».

وجد السعودي أن أسواق المدينة قذرة ومزدحمة. أما أكثر معالم جدّة جاذبية فهي أوجه المباني المزينة بالمشربيات (Mashrabiyas) أو النوافذ الخشبية المزينة بنقوش وفيرة ذات طراز هندي حُفرت على خشب صلد هندي المنشأ. وكتب السعودي معترضاً: «إن النقوش القديمة أفضل من هذه من جانب النوعية» وبات مقتنعاً أن النقوش الهندية هذه تعكس «تدهوراً مستمراً يبدو واضحاً في جميع الأقاليم الواقعة تحت سلطة حكومة الحجاز».

استقبل السعودي، بعد ظهر ذلك اليوم، الطبيب محمد حسين؛ نائب القنصل البريطاني في جدة، بالإضافة إلى شخص تعرّف عليه السعودي خلال رحلة الحج السابقة. شارك محمد حسين، الذي درس الطب في جامعة البنجاب السعودي شغفه بالتصوير الفوتوغرافي. وأحضر حسين معه ألبومات تحتوي على صور فوتوغرافية التقطها خلال زيارته الأخيرة إلى اليابان. أُعجب السعودي بتعليقات القنصل حول جذور الحضارة اليابانية الراسخة وقدرة اليابان على التقدم والتطور دون اعتماد يُذكر على الغرب.

وسرعان ما تحوّل النقاش إلى حديث عن الدين، واندهش السعودي لما علم عن التسامح الديني عند اليابانيين. «لقد أخبرني الطبيب حسين أنه إذا ما مرّ بوذي بكنيسة ما، فإنه يُبدي احترامه للدين المسيحي من خلال خلع قبعته، ويصنع المسيحيون الأمر ذاته عند مرورهم بمعبد بوذي».

وبعد ذلك بفترة وجيزة، ناقش المجتمعون الوضع في مصر وتطرّقوا إلى الحديث عن الفساد السياسي وحركة الإصلاح الديني التي بدأها الراحل الشيخ محمد عبده (Sheikha Muhammad Abduh) في الأزهر الشريف. لقد أعدّ السعودي تقريراً موجزاً عن رحلة الحج الأولى والأماكن الأثرية في المدن المقدسة من أجل رجل الدين البارز هذا، الذي وافته المنية في عام 1905.

أُحضِر المحمل من الشاطئ إلى موقع المخيم حيث توجد الحملة المصرية، وذلك بعد يومين من وصول سفينة المنيا إلى جدّة واستعد الجميع إلى المغادرة إلى الأراضي المقدسة في مكة في اليوم التالي، وسرعان ما أصبح الطقس حاراً ورطباً. في تلك الليلة احتفل الحجاج بهذه المناسبة عبر الألعاب النارية، إلاّ أن السعودي لم يشاركهم احتفالهم هذا إذ بقي داخل خيمته يعاني من ألم في رأسه ويصارع لسعات البعوض. حظي السعودي بنوم متقطع في حين كان يترقب النهوض باكراً ليبدأ رحلته.



الفصل الثالث

من جدّة إلى مكة

دوّى صدى عيار ناري عالٍ في أرجاء المخيم حيث يقبع الحجاج المصريون، ليأمرهم بالبدء بتحميل أمتعتهم على ظهور الجمال لتبدأ الرحلة إلى مكة. أصاب هذا الدوّي العديد من الحجاج بالارتباك، الذين لم يعتادوا هذه الطريقة التقليدية للإعلان عن مغادرة القافلة إلى مكة.

استمتع السعودي بمشاهدة محاولات بعضهم التأقلم مع هذه الدواب الغريبة التي لم يمتطوا ظهورها من قبل. «لقد تطلب وضع الأمتعة على ظهور وخواصر الجمال، مهارةً معينةً ... [فعلى سبيل المثال]، تحطمت سلة تحتوي على البيض لم يستطع خادم علي بيك [بهجت] من تثبيتها بإحكام».

قام السعودي بترتيب معداته وأدوات السفر الخاصة به بعناية فائقة. وبالإضافة إلى ذلك، ثبّت أمتعته باستخدام المطرقة والمسامير والكثير من الخيوط والحبال المتينة لتأمين حاجياته الضرورية وبخاصة الأوعية التي تحتوي على الماء العذب. تزوّد القليل من الحجاج بمثل هذه الحاجيات الضرورية مثل قارورة مياه لائقة. فالسعودي، على سبيل المثال، تزود بقارورتين، واحدة احتوت على القهوة والأخرى على الشاي الأخضر. تذكر السعودي كيف أوصى الرحالة الإنجليزي ريتشارد بيرتون (Richard Burton) بشرب الماء المطعّم بالليمون، إلا أن الأول فضل شرب الشاي والقهوة معتمداً على تجربته السابقة عندما خرج لأداء فريضة الحج للمرة الأولى.

اتخذ السعودي إجراءات احتياطية أخرى تتلخص في كتابة رمز الحج بخط كبير على أمتعته حتى يتمكن من تمييزها بسهولة. لقد قدّم السعودي نصائح جمة لرفاقه الحجاج: «لا يُقدِّر الكثير من الحجاج المصاعب المرتبطة بالسفر إلى أرض الحجاز خلال موسم الحج، ولذلك يعودون إلى أوطانهم ويحثون الآخرين على الخروج إلى الحج دون الأخذ بعين الاعتبار المرضى والضعفاء من الحجاج».

كانت ساعات الحجاج المصريين قد ضُبطت على التوقيت التركي، وسرعان ما انطلقت القافلة التي شكلت قاطرة من الجمال مثيرة للإعجاب، يتوسطها المحمل. أما الفقراء من الحجاج الذين لم يتحملوا نفقة تأجير الجمال فتابعوا المسير سيراً

على الأقدام. سار السعودي ممتطياً جمله، إلى جانب كل من علي بهجت وخطّاب أفندي (Khattab Effendi)؛ مهندس يعمل في وزارة الأوقاف المصرية في القاهرة. كانت مهمة خطاب أفندي تقديم تقرير عن التكايا (tiqiyas) أو بيوت الصدقة المصرية التي أُسست في كل من مكة والمدينة.



ثلاثة قبور، وهي الأكثر قداسة وتعود إلى القرن الخامس عشر ويطلق عليها جنات المعلا (Gannat al-Ma'allah) أو مقابر المعلا الواقعة خارج مكة. أما القبر الواقع إلى اليسار فلقد أُعيد بناؤه في عام ١٨٧٩ وهو قبر السيدة خديجة (Khadija)؛ الزوجة الأولى للنبي محمد-صلى الله عليه وسلم. أما القبر الواقع إلى اليمين فقد عُرف أنه قبر السيدة آمنة (Amina)؛ والدة النبي محمد التي وافتها المنية بعد دخولها المدينة المنورة. أما العمودان الصغيران فيشيران إلى قبر تركي، وفي الوسط يبدو أحد المسؤولين المصريين وقد وقف، مرتدياً طربوشه، حتى يتمكن السعودي من التقاط صورته.

عمودان حجريان وقد طُليا بالطبشور الأبيض، استُخدما كعلامتين تُشيران إلى دخول أو خروج الحجاج من منطقة مقدسة معينة. يقع خلف هذين العمودين، وتحديداً خارج مكة، المسجد الذي شُيد فوق البقعة التي أحرمت منها السيدة عائشة؛ الزوجة الثالثة للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم.

أدت حركة الجمال المتأرجحة، بالإضافة إلى حرارة الشمس إلى إصابة علي بهجت وخطّاب أفندي بالدّوار، ولذلك أرادا أن يترجّلا عن ظهر جمليهما ويُتابعا رحلتهما سيراً على الأقدام. حذّر السعودي كليهما من مغبّة السير تحت أشعة الشمس الحارقة، ولكنهما لم يستمعا له وتابعا السير برفقة خدمهما. ثم سرعان ما تخلّف كلاهما عن الرّكب ولم يعد بإمكان السعودي رؤيتهما إذ لم يتمكن علي بهجت وخطّاب أفندي من اللحاق بالقافلة إلاّ عندما قررا ركوب جمليهما من جديد.

وعندما توجهت القافلة باتجاه سلسلة الجبال الممتدة خلف جدّة، أصبحت الأرض صلبة ومستوية، ويبدو أنها كانت ملائمة لمرور المركبات والقطارات، وعندها استغرق السعودي في التفكير في خطط الأتراك الرامية إلى مدّ خط سكة حديد الحجاز حتى تصل إلى مكة.



صورة: القافلة التي كانت أشبه بقاطرة وتكونت من ألف وأربعمائة جمل استأجرت في جدة للسفر إلى مكة وجبل عرفة. لم يتمكن كثيرون من تحمل نفقة استئجار دابة، لذلك اضطروا إلى السفر سيراً على الأقدام. وقد تطلب تنظيم حركة القافلة تخطيطاً يشبه إلى حد كبير التخطيط العسكري، كما تذمر السعودي من حقيقة أن العديد من رفاقه الحجاج لم يكونوا مهيئين لتحمل ظروف السفر القاسية والشاقة.

بعد مرور ثلاث ساعات ونصف أخذت الأرض المنبسطة تضيق وقد طوّقتها الجبال من كل جانب. كانت حرارة الجو لا تطاق عندما مرّ السعودي بامرأة تجلس على جانب الطريق وقد أصابتها ضربة شمس. «إن الصخور السوداء تمتص حرارة الشمس كما لو كانت حديداً صلباً ساخناً». غير أن النساء من الحجاج، بشكل عام، بَدَوْن قادرات على تحمّل قسوة السفر،



منظر شامل (بانوراما) لمكة التُقط من الجهة الشمالية الشرقية.

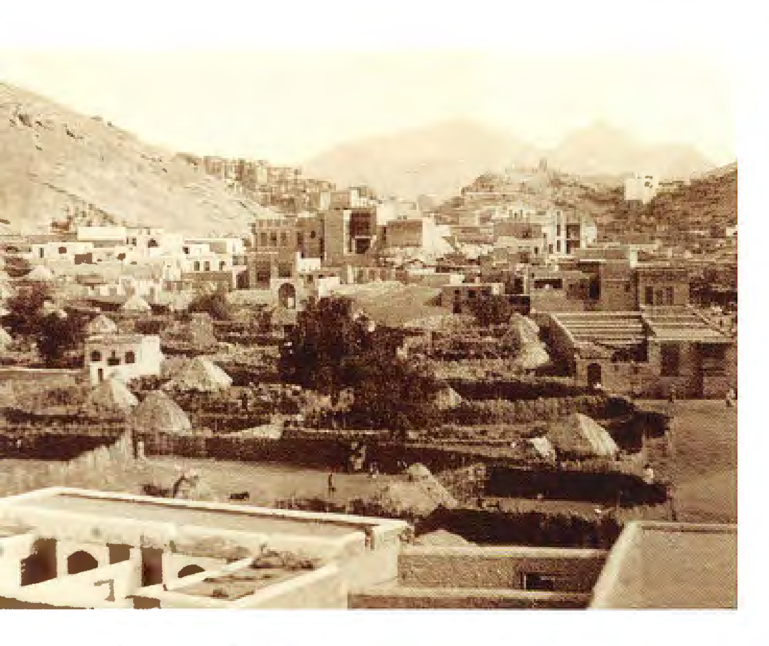
وغالباً ما «لجأن إلى الغناء للترفيه عن أنفسهن».

نسي السعودي مظلّته في جدّة. وعلى أي حال، وجد السعودي أن بإمكانه تجاهل الشمس الحارقة من خلال التفكير أنه يتقرب من الله عز وجلّ عبر تحمل هذه المشقة. «بفضلٍ من الله أنا قادر على تحمل هذه المِحن».

تمكنت شخصية الشيخ محمد التكرودي (Mohammad al–Takrudi) المرحة من الترويح عن المسافرين بين الحين والآخر، حين كان يقفز وهو ممتط ناقته أو مترجّل عنها كلما سمع صوت الموسيقى. تمتع الشيخ التكرودي كذلك بقدرة مميزة على سرد أسماء جميع الشيوخ في المحافظات المصرية، بدءاً بالقاهرة، وبصوتٍ مفعم بالطرب والإيقاع.

وبينما بدأت الطريق تتعرج متوغلة في أعالي الجبال، أصبح الهواء أكثر جفافاً. حاول السعودي أن يخلد إلى النوم داخل الشاكداف الخاص به، لكنه لم يحظ إلاّ بقيلولة وجيزة.

وعندما شعر بالعطش ارتشف قليلاً من الشاي الأخضر من قارورته، غير أنه لم يشعر برغبة في الأكل حتى توقفت القافلة في البحرة (Bahra) الواقعة في منتصف الطريق المؤدي إلى مكة. نال الإنهاك والإجهاد من الحجاج بعد مضي تسع ساعات من المسير المتواصل.



ضواحي مكة بالقرب من جبل جرول (Mount Jarwal).

انهار خادم علي بهجت، الذي أصرّ على السفر سيراً على الأقدام طوال الرحلة، ورفض عرض السعودي بركوب أحد الجمال الإضافية الخاصة بالأخير. «استلقى [الخادم] على ظهره وبدا مثل جثة هامدة». قال الخادم، في بادئ الأمر، إنه سار على قدميه معتقداً أن ذلك جزء من الإحرام، ثم اعترف الخادم المسكين أنه يعاني من البواسير التي جعلت ركوب الجمل، بالنسبة إليه، أمراً مؤلماً لا يُحتمل. وتعهّد السعودي بالحصول على مقعد مريح له؛ «هذا الخادم صادق ويتمتع بحس عميق بالمسؤولية، وهو أمر نادر في يومنا هذا».

وبينما استعد الحجاج لقضاء ليلتهم، طلب الأمير من السعودي التقاط صور للمخيم. وعندما بدأ ضوء النهار يخفت تدريجياً، نصب السعودي كاميرته فوق ربوة تطل على أحد المساجد. وبينما كان السعودي يتفحص المشهد عبر كاميرته، أدرك أن اثنين من البدو كانا يراقبانه. استفسر السعودي بأسلوب مهذب للغاية إن كانا يمانعان تصويره للمكان، وقد توقع السعودي أن يتسبب البدويان بمشاكل عدّة، فلقد علم من تجربته السابقة أن البحرة عدّت مكاناً خطراً، حيث قام البدو في السابق بقتل أحد الحجاج والسطو على آخرين. على أي حال، قام البدويان بتفحص معدات السعودي بهدوء، ثم أذنا له بمتابعة عمله.

شجع ميل البدويين إلى الهدوء السعودي في بدء محادثة معهما.

سأل السعودي البدويين: «إن كان ديننا ينص على أننا جميعا سواسية أمام الله، فهل ستقتلاني

إذا سنحت لكما الفرصة؟»

أجاب البدوي: لن أُقدم على قتلك حتى ولو كنت تسير ليلاً أو ملكت مالاً».

سأل السعودي: «هل أنتما من أهل البحرة؟».

أجاب أحد البدويين: «أنا سيّدٌ (Sayyid)؛ واحد من نبلاء البحرة».

وعندما تلقى السعودي إجابة البدوي، قرّر أن يستفسر عن واقعة قتل الحجاج التي حدثت في السابق. وعلى الرغم من إنكار البدويين تورطهما في مثل هذه الحوادث، شعر السعودي بوجوب أن يقول أن بعض البدو يتسببون بالأذى للآخرين عندما يعضّون اليد التي أحسنت إليهم. وفسّر السعودي ذلك بقوله: «إنكم تقتلون الأشخاص ممن لهم فائدة عظيمة لكم، فهم يُنعشون التجارة في بلادكم كل عام».

أجاب البدوي: «لم أقترف خطأً، وكذلك هذا الرجل الذي يرافقني وهو شريف (Sharif)، وأنت تقف في هذه اللحظة على أرضه التي ورثها عن أسلافه».

قاطع السعودي البدوي مستفسراً: «ما الفرق بين السيد (Sayyid) والشريف (Sharif)؟»

ردّ البدوي قائلاً: «السيد ينحدر من سلالة النبي محمد، والشريف كذلك، إلاّ أن الشرفية تلك تُكتسب بالسيف».

أربك هذا اللقاء السعودي وسيطر على أحلامه، وبات مقتنعاً أن سكان البحرة يُضمرون النوايا الشريرة تجاه الحجاج. ولكن سرعان ما اتجهت أفكار السعودي نحو أداء فريضة الحج، وذلك في صباح اليوم التالي، الأول من كانون الثاني عام 1908.

استأنفت القافلة مسيرها بعد انقضاء منتصف النهار وصاحبها نسيم عليل. أصبحت الرحلة أسهل من قبل، فلقد انتهت سلسلة الجبال التي طوّقت الطريق. وتسببت الريح في بعض المناطق بتكوين دوامات رملية حول الأجمات التي تتكون من نبات الحرمل (Al–Harmal) أو ما

يُعرف بالسّذاب البري[1] (أو الفيجن أيضاً) الذي ينمو متفرقاً في الصحراء. مرّ السعودي، في مرحلة ما من رحلته، بهيكل جمل يابس، وبالقرب منه اعتلى عدد من الجنود الأتراك الذين قاموا بحراسة المكان، ربوة صغيرة، وعندما رأوا الأمير ومن رافقه من الحجاج، ألقوا عليهم التحية.

وصلت القافلة إلى الحديبية (Al–Hudaybiya) خلال ست ساعات، حيث بدأ النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– إحرامه وحيث نُصب عمودان لتحديد هذه البقعة المقدسة الخاصة بطقوس الحج. وبينما اقترب السعودي من مكة، لاحظ أن أعمدة التليغراف الخشبية القديمة التي وضعها العثمانيون قد استُبدلت بأعمدة معدنية جديدة ذات أطراف مدببة.

تجمع البدو خلف الجبال وقد ركبوا الجمال، لمراقبة مرور القافلة. وصف السعودي إعجابه بهذا المشهد فقال: «يا لروعة خلق الله! ... يندمج العربي الذي يعتلي ظهر جمله مع الجبال فيبدو مثل دودة تتسلق أوراق السّذاب البري».

أعجب السعودي كذلك بالنبرة الموسيقية لأصوات البدو، وكيفية تزيينهم لعيونهم بالكحل. غير أن السعودي كان أقل إعجاباً بأسنانهم التي «كانت في حالة سيئة بسبب تناولهم الكثير من السكريات».

في وقت متأخر من الليل، كان بإمكان أفراد القافلة تمييز جبل النور المخروطي الشكل، حيث نزل جبريل عليه السلام، على النبي محمد للمرة الأولى. توقف السعودي بالقرب من مسجد صغير، وبينما كان على وشك البدء بالصلاة سمع صوتاً يُلقي عليه التحية، كان ذلك صوت أقرباء له من مكة أرسلتهم والدته، التي سبقته إلى هناك، ليرشدوه إلى المدينة.

رفض السعودي أن يترجل عن جمله حتى دخل مكة المكرمة وذلك خشية ضياع أمتعته وحتى يختار بنفسه المكان الذي يرغب في المبيت فيه. تنافس أقرباء السعودي على

---

(1) ينمو السّذاب البري (Wild Rue) في أقاليم البحر المتوسط الواقعة شرق الهند، ويتصف بخصائص طبية تتميز بها أوراقه المرة المذاق. (المترجم)

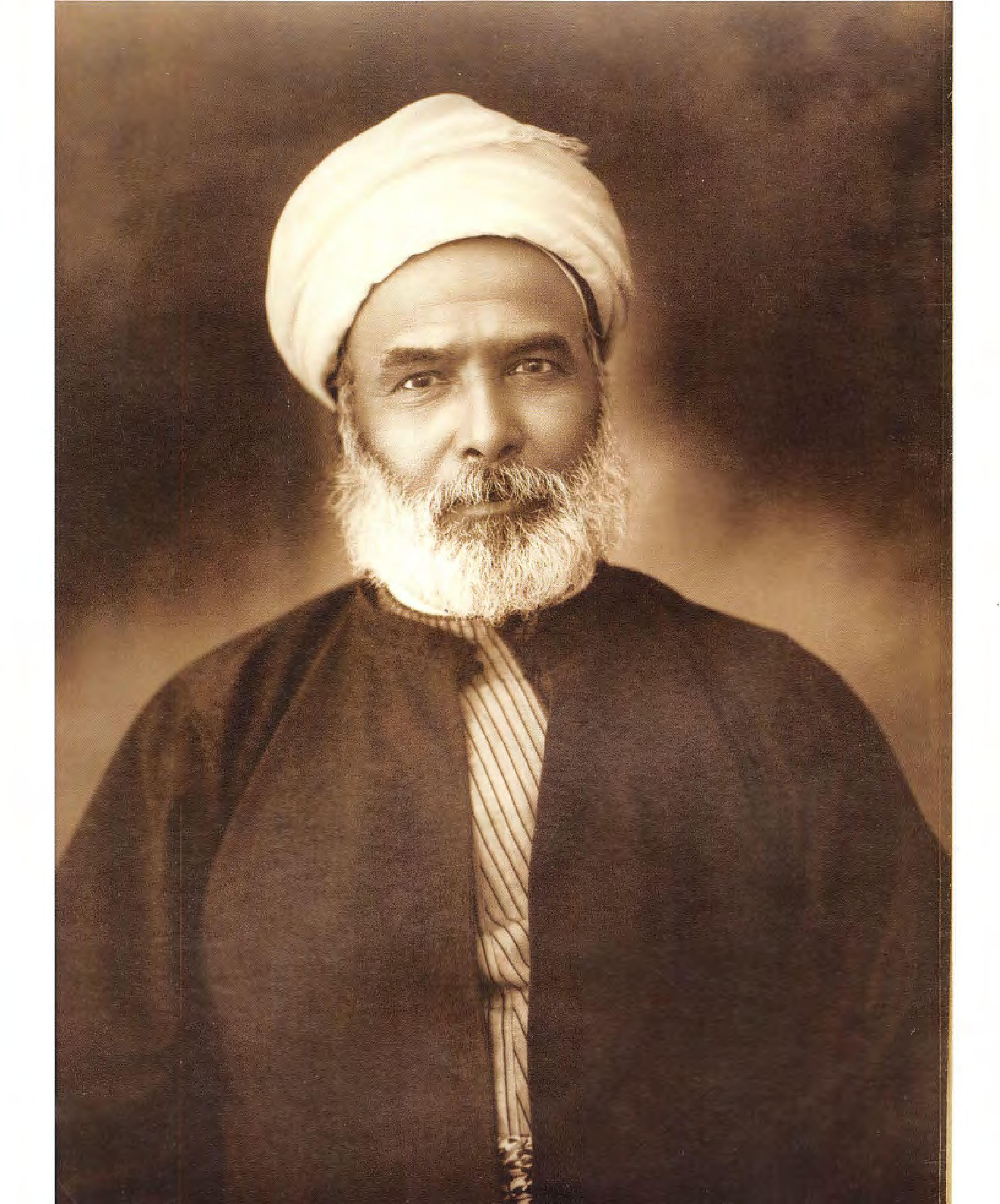
استضافته بصحبة رفاقه. ولقد أصابت الحيرة السعودي؛ فأي بيت عساه يختار؟ لكنه اختار، في نهاية المطاف، منزل إبراهيم أفندي صدقي (Ibrahim Effendi Sidqi). بينما قرر كل من علي بهجت وخطّاب أفندي، في تلك الأثناء، المبيت في التكية المصرية (Tiqiya Al-Masriya).

وفي حين كان السعودي يشق طريقه بحذر في شوارع مكة، أثارت الرائحة الكريهة المنبعثة من القمامة المتعفنة شعوره بالتقزز، مما جعله ممتناً لحقيقة أنه أحضر طعامه معه من مصر. قابل إبراهيم أفندي صدقي ووالده وأخوه، السعودي أمام التكية المصرية الواقعة في شارع فرعي عُرف بشارع النقاء (Al-Naqa`). قاد إبراهيم أفندي صدقي السعودي إلى غرفة الاستقبال الواقعة في الطابق العلوي لتبادل التحية مع الآخرين قبل تقديم الطعام، الذي جرى في جوّ ملوءه البهجة والمرح.

كما قام علي بهجت وخطّاب أفندي بزيارة السعودي في بيت [أقربائه] حتى يتمكن السعودي من تقديمهما للآخرين، وعندها شعر السعودي أنها فرصة ملائمة ليشرح دوره كمصور فوتوغرافي يقوم بمساعدة علي بهجت في إنجازه عمله.

أراد السعودي أن يُنهي أي سوء فهم لطبيعة الأنشطة التي يقوم بها علي بهجت وخطّاب أفندي؛ المسؤولَيْن المصريَيْن صاحبي الدرجة الرفيعة. واندهش السعودي عندما وجد أن أقرباءه قد علقوا إحدى الصور التي قام بالتقاطها هو نفسه، ألا وهي صورة الشيخ محمد عبده الذي مُنِعت كتاباته في الحجاز. وعندما انتهى السعودي من المراسم الشكلية، أراد أن يطوف بالكعبة لكنه كان منهكاً للغاية، ففضل الخلود إلى النوم.

صورة الشيخ محمد عبده التي التقطها السعودي بنفسه، واندهش عندما رآها معلقة في منزل أقربائه في مكة، فلقد خضعت كتابات عبده الدينية، وكان مفتي مصر الأعظم، للرقابة في أراضي الحجاز.





خريطة مكة، مبنية على خريطة مقتبسة من كتاب حياة محمد عنوان كتاب لمحمد حسنين هيكل (القاهرة، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، ص. ص. ٢٠٨ - ٢٠٩.

الفصل الرابع

داخل مكة

استيقظ السعودي نشطاً للغاية في أول صباح له في مكة المكرمة. وبعد أن أدى الصلاة، بحث السعودي عن علي بهجت وخطّاب أفندي اللذين قضيا ليلتهما في منزل أقرباء السعودي، في نهاية الأمر، وكان السعودي قد خطط للطّواف حول الكعبة برفقتهما.

شعر السعودي بالرهبة عند رؤيته للحرم المكي وباحته الفسيحة العظيمة، عندما زاره للمرة الأولى خلال رحلة الحج السابقة، وقد سجل السعودي بدقة متناهية ومدروسة كل التفاصيل التي استحوذت على اهتمامه، كما علّق على التسعة عشر باباً للحرم، التي تعدّ مداخل مختلفة تفضي إليه، واتّبع السعودي متعمداً الطريق الذي سلكه النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– فدخل إلى الحرم عبر بوابة الصّفا (Safa Gate).

قاطع علي بهجت تحضيرات السعودي لأداء مناسك الطواف عندما أخبره أنه تمكن من إيجاد سكن ليبيتا فيه، هما وخطاب أفندي حتى انتهاء إقامتهما في مكة. وأضاف علي بهجت أن الإيجار قد دُفع مسبقاً. صُعِق السعودي بسبب ما سمعه، فهذه الترتيبات الجديدة تتناقض مع ما تم الاتفاق عليه مسبقاً، وأيقن أنها ستزعج أقرباءه للغاية.

قال السعودي: «لا أستطيع أن أفترق عن أقربائي الذين تخلّوا عن نمط حياتهم الاعتيادي حتى يوفروا لي إقامة مريحة، والذين يهتمون بأي مشكلة قد تطرأ».

أصرّ علي بهجت على مغادرة منزل أقرباء السعودي إلى حدّ التزمت والعناد، فأخبر السعودي: «إن لم تكن قادراً على الافتراق عن أقربائك، فيجب عليك التخلي عن رفقتنا!»

حاول السعودي أن يتحدث مع علي بهجت وخطاب أفندي بصوت العقل والمنطق حتى يكتشف السبب الكامن وراء تغييرهما لرأيهما حيال الإقامة عند أقاربه. اعتقد السعودي في بادئ الأمر أن السبب يعود إلى شعورهما بأنهما مقيدا الحركة في ذلك المنزل. وفي الوقت ذاته، أخبرهما السعودي بضرورة أن يكونا أكثر ليونةً، وأن يضعا بعين الاعتبار مزايا الإقامة في منزل أقربائه.

توصل الجميع إلى تسوية منطقية في نهاية المطاف، فقد اتفق الجميع على بقاء علي بهجت مع السعودي، في حين يبقى خطاب أفندي في السكن المدفوع الإيجار مسبقاً. وبعد ذلك، بدأ نقاش جديد حول تصميم علي بهجت على

دفع أجرة لأقرباء السعودي مقابل إقامته عندهم.

قال السعودي: «لن يقبل أقربائي أن تدفع لهم أجرة أو مكافأة مقابل استضافتهم لنا».

أصر علي بهجت من جديد: «سأبقى إذا قبلوا هديتي».

لم يتمكن السعودي من ثني علي بهجت عن عزمه، لكنه تمكن من إقناعه بعدم إخبار أقربائه عن الأمر مسبقاً. لقد كان من الصعب التوصل إلى هذه التسوية مع علي بهجت وكانت هذه الحادثة بداية الاحتكاك بين السعودي وصديقيه.

لم يرافق علي بهجت السعودي في أداء مناسك الطواف، ولكن خطاب أفندي فعل، وبمجرد أن بدأ الاثنان طوافهما اقترب منهما المطوِّف (Mutawwif)، أو المرشد المعتمد، وقد قدّم لهما خدماته فعرض مساعدتهما في الطواف. تردّد السعودي حيال قبول خدمات المطوّف لأنه اعتقد بأن «أداء العبادة لا يحتاج إلى مساعدة وسيط ما»، وعلى الرغم من ذلك، استأجر السعودي ذلك المطوِّف في نهاية الأمر.

اختار السعودي خلال رحلة الحج الأولى مطوِّفين اثنين، وكانا شقيقين، وتعاقد معهما لحظة وصوله إلى جدة. وقد أثبت هذان المطوِّفان أنهما قيمان للغاية، فتطلع السعودي إلى التعاقد معهما من جديد والاستفادة من خدماتهما. على أي حال، لم يظهر أي منهما في جدة حيث يبدو أن علي باشا (Ali Pasha)؛ شريف مكة، قد حذرهما من أي اتصال بالحجاج المصريين. لقد تبيّن أن أحدهما، وهو الشيخ محمد أبو ناصر (Sheikh Muhammad Abu Nasir)، قد زُجّ به في السجن بناء على تقارير وصلت إلى شريف مكة، في أول ليلة قضاها الحجاج في مكة.

وعندما اقترب السعودي من الكعبة لم يقم بلمس الحجر الأسود كما جرت العادة بين الكثير من الحجاج، لأن الأمر بدا له غير حكيم بسبب انتشار الكوليرا في المدينة. اكتفى السعودي، عوضاً عن ذلك، بالإشارة إليه وهو أمر مقبول أيضاً. ثم شرب السعودي من مياه بئر زمزم المقدسة. وبعد ذلك أدى السعودي مناسك السعي وتتلخص في هرولة الحاج سبع مرات بين جبلي الصفا والمروة،

الباعة الذين تمركزوا في شوارع مكة والذين وجدوا خارج أحد الأبواب المؤدية إلى داخل الحرم.





* بوابة علي – رضي الله عنه – بأقواسها الثلاثة المميزة المطلة على ثلاث عشرة درجة تؤدي إلى باحة المسجد الحرام. وعُرفت هذه البوابة آنذاك أيضاً ببوابة بني هاشم (Bani Hashim).

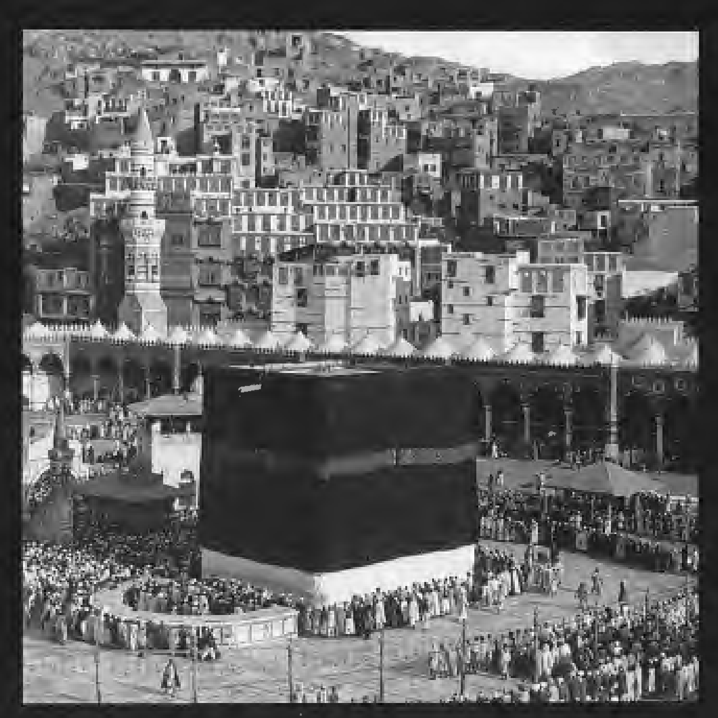
* ينتظر الحجاج في صفوف ليشربوا من بئر زمزم. أنشئ الحاجز الذي يظهر في صدر الصورة، عام ١٩٠٣ لفصل النساء عن الرجال، إلاّ أن هذا الحاجز كان قد أزيل عندما خرج السعودي لأداء فريضة الحج للمرة الثانية.

* الحجاج يطوفون حول الكعبة.

* حجاج يؤدون طقوس الحج ويلمسون سطح الكعبة الرّخامي، أمّا كسوة الكعبة المخملية فلقد قُصّت من الأسفل واستُبدِلت بغطاء أبيض اللون لحماية أحجارها. أما الجزء المقصوص فبيع على هيئة قطع صغيرة للحجاج، وأشرف المسؤولون عن مفاتيح باب الكعبة المؤدي إلى داخلها، على عملية البيع والشراء هذه. يظهر هذا الباب في الصورة وقد غُطي بستار مزركش بوفرة.

* منظر للجهة الشرقية للحرم، ويبدو المبنى الذي يحتوي على بئر زمزم إلى يسار وسط الصورة، وتحديداً بجانب بوابة تؤدى عندها شعائر عديدة. وتظهر سجادات في صدر الصورة تغطي الحصى الممتد بين ممرّين معبّدين، حتى يجلس عليها الحجاج خلال خطبة الجمعة. أما النساء فيجلسن إلى اليمين حيث يتم بيع الأضاحي للحجاج.











خطبة صلاة الجمعة، والخطيب على وشك أن يلقيها من أعلى المنبر، داخل الحرم الشريف.

خريطة تفصيلية توضح المسجد الحرام في مكة، بأجزائه كلها، مبنية على رسم لعلي بيك (Ali Bek)، وهو رسام خرائط عسكري ومصور فوتوغرافي عثماني. توضح الخريطة بعض الخصائص القديمة للحرم مثل المبنيين المربعي الشكل (القبّتين) (al-Qubbatyan) الواقعين بجوار بئر زمزم، واللذين اختفيا عندما التقط السعودي صوراً للحرم. استُخدم المبنى الأول لتحديد مواقيت الصلاة خلال الحج في حين استخدم الآخر كمكتبة، حوت ثلاثة آلاف كتاب.

المسجد الحرام أو ما يُعرف ببيت الله الحرام. خريطة تفصيلية مبنية على رسم لعلي بيك.

To face vol. ii. page 295.

Ali Bey's Plan of the Prophet's Mosque at Meccah.

COMMONLY CALLED BAIT ALLAH OR GOD'S HOUSE.





كتبخانة السلطان محمود بالمدينة المنورة؛ إحدى المكتبات التي زارها السعودي في مكة برفقة علي بهجت بينما كان الأخير يكتب بحثه المتعلق بالآثار والمقدسات الإسلامية.

أحد شوارع مكة ويعكس البناء المتعدد الطوابق فن العمارة المُمَيز لهندسة المدينة.

كمحاكاة لما قامت به هاجر(Hajar)؛ زوجة النبي إبراهيم (Abraham)، عندما اندفعت مهرولة بين هاتين البقعتين بحثاً عن الماء، ثم كشف لها الوحي، في نهاية الأمر، عن مكان وجود الماء الذي بات يُعرف ببئر زمزم (Zam Zam). أما الصفا والمروة فتمّ تحديد مكانهما فيما بعد بعمودين لإرشاد الحجاج إليهما.

أنهى السعودي عباداته الأولية، فشعر أن بإمكانه الآن استكشاف مكة برفقة صاحبيه. ولحسن الحظ، تمكن أقرباء السعودي من إيجاد طرابيش بدلاً من تلك التي فقدوها في غمرة الفوضى التي وقعت في جدّة. وسرعان ما انشغل السعودي في تقديم علي بهجت إلى أمين مكتبة المدينة أو ما عُرِف بكتب خانة (Kutub Khana)، الواقعة بالقرب من باب السلام. ساعد أمين المكتبة علي بهجت فزوّده بكتب ومراجع ليكمل بحثه.

قام كل من السعودي وعلي بهجت باستكشاف المباني القديمة في المدينة. وعندما أراد علي بهجت أن يرسم معالم المدينة أمام العامة، اقترح السعودي أن من الحكمة أن يرسم علي بهجت مخططاً أولياً



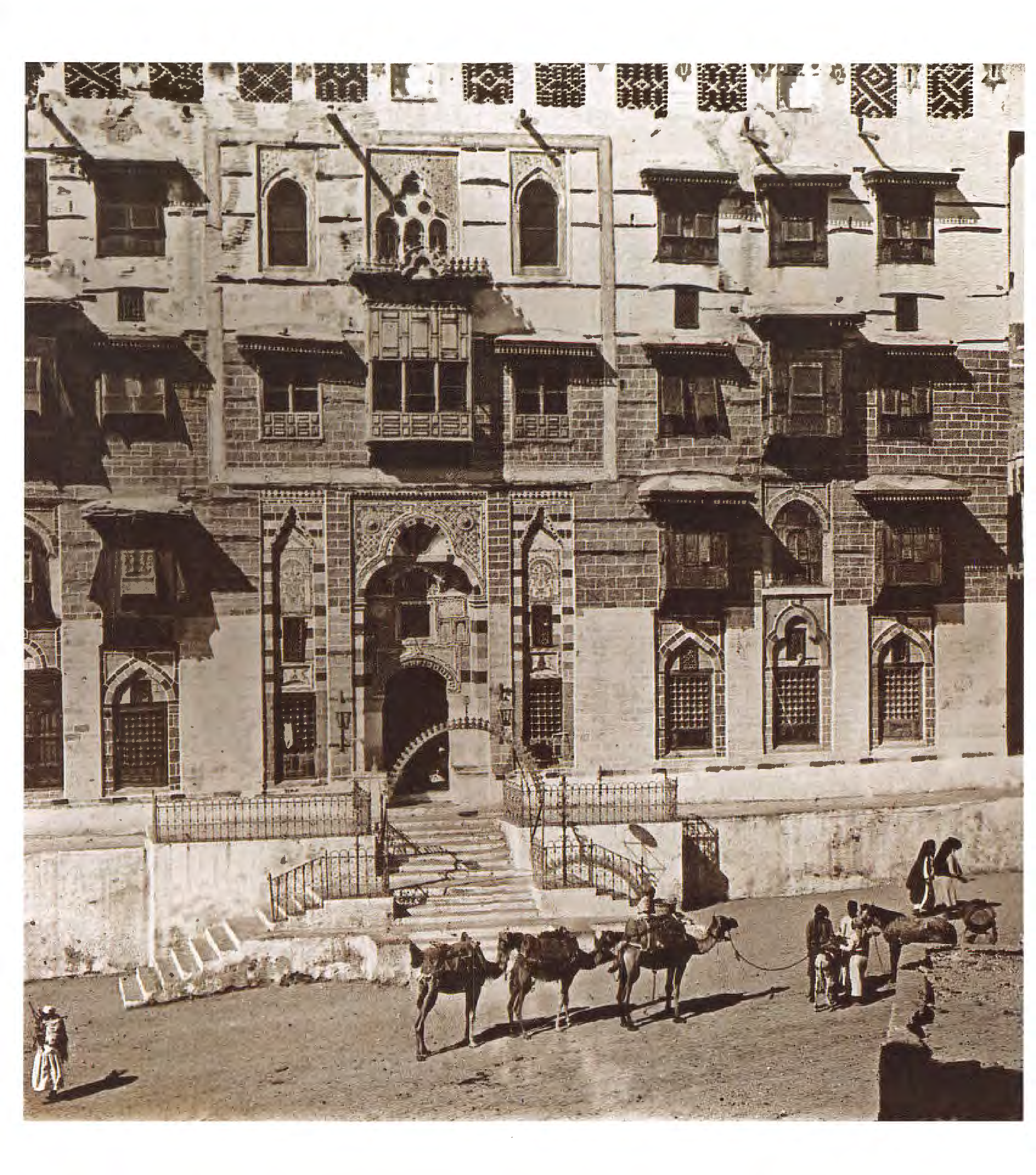
واجهة بيوت تقع في منطقة أجياد (Ijyad) الثرية، التي فضلها البيروقراطيون العثمانيون. ويبدو الحصن العثماني جلياً خلف هذه البيوت، وقد سيطر العثمانيون من خلاله على مكة.

لأي عبارات لافتة للنظر خُطّت على هذه المعالم، وبسرعة فائقة من قبيل الحذر. وعند الانتهاء من هذا المخطط الأولي، عليه أن يُخفيه تحت ملابسه ثم يُعيد كتابته بخط ملائم عند عودته إلى المنزل.

«كان علي بهجت بارعاً في تدوين الخطوط القديمة وعدم إثارة الشكوك من حوله». على أي حال، وبينما كان علي بهجت يستعد للرسم أمام العامة، تسبب السعودي في إرباكه عندما بدأ بالتقاط صور لمعالم المدينة. لم يستطع السعودي فهم موقف علي بهجت المتناقض في هذا الخصوص.

تجول الرجلان سوية في المكان، أحياناً، وزارا أضرحة مختلفةً أو تسلقا مواقع مميزة لمشاهدة مكة من الأعلى، مثل جبل أبي قبيس[1] (Abu Qabis). استمر السعودي، خلال ذلك، في مراقبة بُخل علي بهجت. فعلى سبيل المثال، عندما أرادا استئجار مطوِّف ظهر شحّ الأخير جلياً حين حاول تجنب استئجار مُرشد طوال فترة أداء فريضة الحج، وفضّل استئجار المطوِّف في مناسبات خاصة فقط. بات

(1) يقع جبل أبي قبيس في الجهة الشرقية للمسجد الحرام، ويبلغ ارتفاعه 420 متراً تقريباً، وقيل إنه سُميّ بذلك لأن رجلاً يُقال له أبو قبيس، كان أول من قام بالبناء عليه، ويُعرف جبل أبي قبيس أنه أول جبل وُضع على الأرض. (المترجم)



علي بهجت مقتنعاً أن المرشد سيطلب أجراً مقابل كل خدمة يقدمها على حدة، على الرغم من أن الحال لم تكن كذلك بالنسبة إلى الرجل الذي تعاقد معه السعودي. ونتج عن ذلك أن ظلّ المطوِّف الذي استأجره السعودي بلا عمل، طوال اليوم، بانتظار تعليمات من الرّجلين، بينما استأجر علي بهجت مرشداً مؤقتاً.

بمرور الأيام، تصرف علي بهجت بفضول شديد، وبدا غريب الأطوار. جاء علي وقد حمل معه رسائل تعريف إلى الوالي (Wali)؛ حاكم مكة، كُتبت من جانب شخصيات مهمة في القاهرة مثل مدير الأوقاف، لكنه لم يكن واثقاً من طريقة استغلالها والاستفادة منها بالشكل الصحيح. لكنّ السعودي أكد له أنهما بحاجة إلى تقديم أوراق الاعتماد الخاصة بهما فقط، وهذا من شأنه دحض الشائعات التي انتشرت في القاهرة حول كونهما جاسوسين. ولم يشجع السعودي علي بهجت على طلب مساعدة خاصة تقدمه إلى الوالي، فلعلّ ذلك سيلفت نظر الآخرين نحوهما ويعرض مهمتهما للخطر.

عرض مدير التكيّة المصرية في مكة تسهيل مهمة علي بهجت، ولقد كان عبد الله أفندي حمد، فضلاً عن كونه مديراً للتكيّة، مترجماً ومراسلاً ووسيطاً عند الوالي، وسعى كذلك إلى الفوز بإعجاب علي بهجت الذي يتمتع بسلطة جيدة في مصر، وسيذكر، بالتأكيد، محاسن عبدالله أفندي حمد هناك.

لم يثق السعودي بنوايا عبدالله أفندي حمد لأنه عمل في السابق لدى محافظة القاهرة، وقيل عنه إنه كان يتلقى رشاوى مقابل إصداره لوثائق سفر الحجاج المصريين. وعلى الرغم من ذلك، ساعد السعودي عبدالله أفندي حمد عندما عُيِّن الأخير في منصبه الجديد في مكة عبر تزويده برسائل موجهة إلى أقرباء السعودي واتخاذ الترتيبات اللازمة لاستئجار الجمال لنقل عبدالله أفندي حمد من جدة إلى مكة.

كتب السعودي في يومياته: «اعتقدت أن عبدالله أفندي لن ينسى أبداً ما فعلت لأجله»، إلا أن السعودي شعر بخيبة الأمل عندما دخل مكة، خلال رحلة الحج الثانية، ومرّ بالتكيّة المصرية حيث كان عبدالله أفندي واقفاً أمام المبنى، «ألقيت عليه التحية لكنه لم يرد».

درج رائع مزخرف بدرابزين معدني فريد من نوعه، خارج مبنى حكومي لم يحدده السعودي.

بيد أن السعودي لم يسيء الظن به، إذ اعتقد أن عبدالله أفندي حمد لم يتمكن من تمييزه وقد ارتدى ملابس الإحرام مثل بقية الحجاج. وفي اليوم التالي، عندما زار السعودي التكيّة المصرية، وجد الأمير خارج أبوابها غاضباً حين تبين له أن عبدالله أفندي حمد قد استثنى الفقراء من الإقامة في التكية خوفاً من انتشار الكوليرا. على أي حال، كان عبدالله أفندي حمد سعيداً بالسماح للأغنياء بالإقامة في التكية، مما أثار حنق الأمير الذي هدّد بإبلاغ مدير الأوقاف في القاهرة عن الأمر.

تطوع السعودي لإنقاذ الموقف، فأقنع عبدالله أفندي حمد بتغيير سياسته. «لقد أجبرته على الاعتراف بخطئه وأن دور التكية يتلخص في توفير المأوى لأي شخص وتقديم الطعام للفقراء». حاول عبدالله أفندي حمد أن يُرضي الأمير فقدّم له اعتذاره، «منذ تلك اللحظة، وكلما مررت أمام التكية، ردّ عبدالله أفندي تحيتي له، باحترام وإجلال مبالغ فيهما».

على أي حال، لم يكن السعودي ليثق بعبدالله أفندي حمد خلال إقامة الأول المؤقتة في مكة، ولم تتغير نظرة الأمير الدونية نحوه. فبالإضافة إلى ما سبق، اكتشف الأمير أن عبدالله أفندي حمد تعمّد تأخير تقديم الطعام للفقراء وتغيّب خلال أوقات العمل الرسمية، في الوقت الذي اصطف فيه الفقراء خارج التكية، ويبدو أن عبدالله أفندي حمد كان نائماً طوال الوقت، فاضطر الأمير أحياناً إلى إجباره على الاستيقاظ لتوزيع الخبز على الفقراء من الحجاج المصريين.

لحسن الحظ، تجاهل علي بهجت عرض عبدالله أفندي حمد بأن يلعب الأخير دور الوسيط لدى الوالي؛ عرض لا يخلو في الواقع من المصلحة الشخصية، غير أن أقرباء السعودي بادروا بالعرض دون أن يسألهم السعودي. ونتج عن تدخل أقرباء السعودي أن عامل الحاكمُ علي بهجت «كعالمٍ جديرٍ بالاحترام، وزوّده بالأذونات أو الرخص اللازمة ليستفيد منها خلال إقامته في مكة والمدينة، وحتى في دمشق».

عدّ علي بهجت هذه الأذونات منحة كتلك التي توهب تقديراً لشهامة الفرسان. «فاستخدمها كما لو كانت رخصاً سياحية مهدت له الطريق نحو شخصيات مهمة». وقاده تصرفه هذا إلى حادثة

الحجاج وقد تجمعوا في باحة المسجد الحرام لأداء صلاة الجمعة، ويمكن رؤية الحمام الذي فزّقه هذا الجمع الغفير. رُفِعت كسوة الكعبة إلى الأعلى للحفاظ عليها.



خطيرة عندما قام بنقل ما كُتب على الأبنية الموجودة داخل ضواحي المسجد الحرام، أمام ناظري الأغوات (Aghawat)، وهم الحرس الخاص المسؤول عن حراسة هذا المكان المقدس. أمسك الحراس بعلي بهجت الذي كان على وشك أن يتلقى عقاباً قاسياً، لولا تدخل الشيخ المقرّب من شريف مكة.

لم تُثنِ هذه الحادثة علي بهجت عن تقديم نفسه كشخصية مهمة عند دخوله إلى منزل شريف مكة، وطلب الحصول على مرافق يعود به إلى المسجد الحرام ليتابع عمله. على أي حال، أمر الشريف علي بهجت، بوضوح، بعدم مراقبة أو نقل أي شيء إن كان يبحث عن آثار تاريخية. خاطب الشريف، علي بهجت قائلاً: «الآثار في بلدك وليست هنا، ولن نلبيّ طلبك».

علم السعودي فيما بعد أن شريف مكة تصرّف بهذه الطريقة حتى يحمي منصبه الذي يعود عليه بفوائد جمّة، فلم يرغب أن يظهر أمام السلطات العثمانية كمؤيد للحكومة المصرية. لقد رفضت حكومة الدولة العثمانية (الباب العالي Sublime Porte) أن تنسب الفضل إلى الحكومة المصرية فيما يتعلق بترميم أي جزء من المسجد الحرام أو الحرم المكي.

أمر الخديوي، قبل وقوع الحادثة السابقة بعام، بإرسال رايتين من الحرير، من القاهرة إلى مكة لتزيين منبر الحرم. ورغم الكثير من الصعوبات، وصلت الرايتان إلى مكة. على أي حال، منع شريف مكة استخدامهما لتزيين المنبر قبل أن تسمح حكومة الدولة العثمانية بتعليقهما، عبر مرسوم صادر عن السلطان العثماني نفسه. سعت السلطات إلى الحصول على هذا المرسوم ليتزامن مع خروج المحمل إلى الأراضي المقدسة خلال رحلة الحج الثانية التي قام بها السعودي، لكن هذه المساعي باءت بالفشل.

وعندما منع شريف مكة، علي بهجت من استكشاف المواقع الأثرية داخل ضواحي المسجد الحرام، عرض السعودي على الأخير أن يريه موقعاً «تكثر فيه الآثار والنقوش القديمة». وعندها، كان رد فعل علي بهجت غير متوقع، فلقد عبّر بصوت ملوه الحزن والألم أنه لا يرغب برؤية أي شيء في أرض الحجاز أو البحث أو التنقيب عن آثارها. ولقد رفض علي بهجت تقديم أي تفسير لردّ فعله هذا، «طلب مني علي بهجت عدم استخدام الكاميرا الخاصة بي أو تلك الخاصة به أو بالأمير»، وفضلاً عن

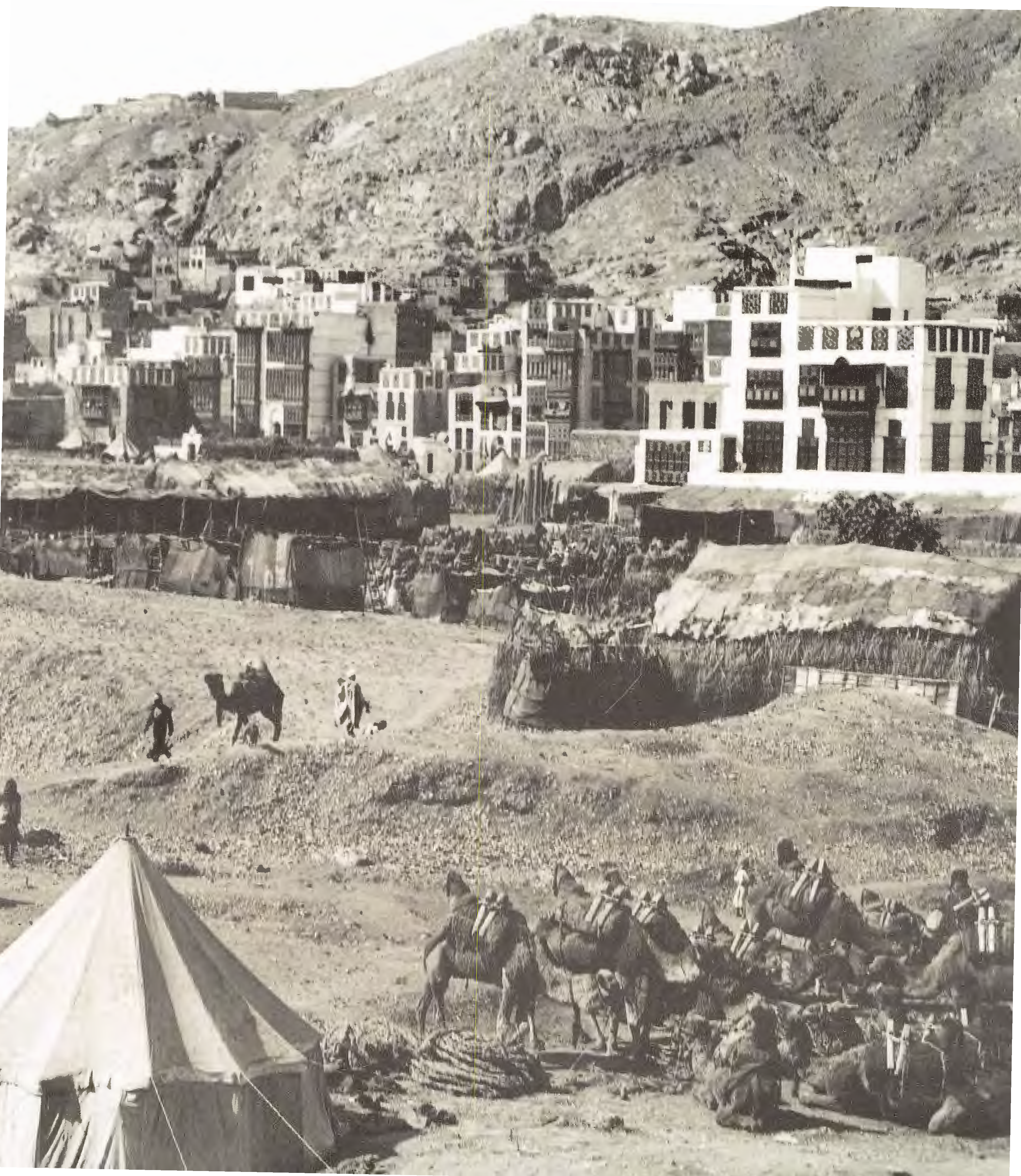
ذلك، هدّد علي بهجت السعودي بإبلاغ السلطات في الحجاز إن قام باستخدام كاميرته.

عدّ السعودي هذا التصرف الغاضب والمفاجئ نقضاً غير مبرر لعهد الثقة الذي يربطهما، ولاسيما أن الصداقة التي تربط الحجاج مقدسة إلى أبعد حد. قال السعودي واصفاً مشاعره في تلك اللحظة: «لم أصدق أن علي بهجت يمكن أن يتحول من خادم مدني مصري إلى جاسوس يعمل لصالح السلطات الحجازية والعثمانية!»

اقتربت لحظة توجّه الحجاج، حسب التوقيت الإسلامي، إلى جبل عرفة الذي يقع على مسافة قصيرة من الحرم، وحيث ألقى النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - خطبة الوَداع. عندها، قابل السعودي علي بهجت، على الرغم من الشجار الذي نشب بينهما، لمناقشة ما يجب عمله خلال الأيام القادمة.

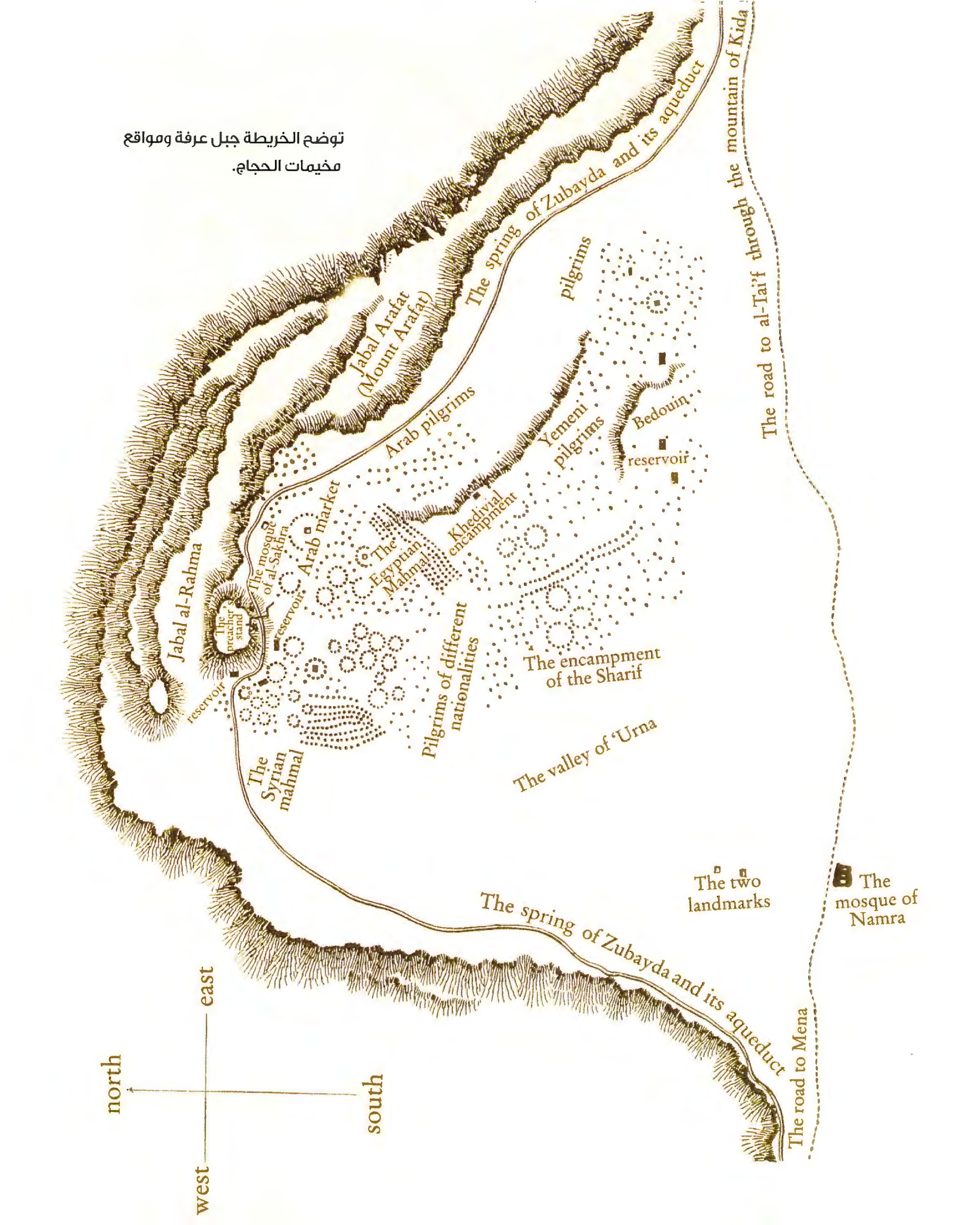
وهنا فاجأ علي بهجت السعودي من جديد عندما أخبره أن خططه قد تغيرت. قال علي بهجت إنه لم يعد مهتماً بالآثار، كما أعلن أنه سيقضي فترة وجيزة في سفح جبل عرفة، بعد ظهر يوم الوقفة (Al-Waqfa)، وهو اليوم الذي يقف فيه الحجاج على جبل عرفة أو بجواره، وبعد ذلك سيعود إلى مكة مباشرة.

برّر علي بهجت تغييره لخططه بأن الوقوف على جبل عرفة يشكل مخاطرة كبيرة، فقد يصاب المرء بعدوى مرض الكوليرا. خاطب علي بهجت السعودي بنبرة دوغماتية فقال: «لك مطلق الحرية في سلوك أي درب شئت. سألتزم بخطتي الجديدة». كتب السعودي واصفاً الأمر: «لقد أخفق علي بهجت في إدراك أن مخاطر الإصابة بالكوليرا هي، في الواقع، أعظم في مكة»، وشعر السعودي بالرضا، فعلى الرغم من غرور علي بهجت لم يكن الأخير عالماً بالغيب وبما قد يصيبه.





توضح هذه الصورة البدو وجمالهم التي
استأجرها الحجاج لبلوغ جبل عرفة.



توضح الخريطة جبل عرفة ومواقع مخيمات الحجاج.

الفصل الخامس

جبل عرفة

انتظر السعودي بفارغ الصبر، عند مغيب شمس الحادي عشر من كانون الثاني، أي يوم التروية (Al–Tarwiya)، وصول الجمال التي ستنقله إلى جبل عرفة. كان السعودي قد استأجر أربعة جمال، وجمّالين وصلا متأخرين، فلم يتمكن السعودي من تحميل أمتعته لولا مساعدة أقربائه، وانتهى من ذلك بحلول الغسق.

لحسن الحظ، كان منزل أقرباء السعودي قريباً من المخرج المؤدي إلى الطريق المفضي إلى جبل عرفة، فقلّص ذلك المعوقات التي قد تواجههم في شوارع مكة المظلمة والضيقة والمزدحمة. كانت الحاجة للجمّالين في مثل هذه الرحلة الليلية ملحةً، وتساءل السعودي إن كان بإمكانه حقاً الاعتماد على هذين الجمّالين اللذين استأجرهما.

وسرعان ما تأكدت هواجس السعودي عندما اكتشف أن أحد الجمّالين انحرف عن الطريق الصحيح، كما كانت الجمال متحدّرة من سلالة هزيلة، فقد كانت بطيئةً كسولةً وغير مريحة بالنسبة إلى راكبها.

وجد السعودي نفسه مرتبطاً بالجمّال المتبقي الذي تبين أنه اعتاد الاستغراق في ظلمة الليل ونسيان نفسه. على أي حال، ظهر القمر وتمكن السعودي من إرشاد نفسه إلى وجهته المقصودة من خلال تتبّع الحجاج الذين تدفقوا نحو جبل عرفة.

كان التوقف في مِنى (Mena) جزءاً من خطة الأمير، الذي حرص على اتباع سُنة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – في هذا الشأن. وعلى الرغم من أن العديد من الحجاج توقفوا عند مِنى أيضاً، عند وصول المحمل المصري إليها، فإن الأمير بدا قلقاً بشأن توافر المياه فيها، لذلك غيّر رأيه وقرر التوجه مباشرةً إلى جبل عرفة.

أماّ الجمّالان فاعترضا لكونهما يسيران على نحو متواصل دون الحصول على قسطٍ وافرٍ من الراحة. وقال السعودي: «لم أصرّ على التوقف في مِنى، فأنا واثق أنهما كانا سيتركاننا هناك».

خيّم الأمير والحاشية التي تقود المحمل في السفح الفسيح أسفل جبل عرفة، في البقعة المخصصة لهم عادةً. أما السعودي فتأخر عن القافلة المصرية بسبب جماله الهزيلة، ثم ضلّ طريقه بين آلاف الحجاج والجمال المتدفقة إلى المكان، والخيم المنصوبة. ترجّل السعودي عن ظهر جمله وبدأ يتجول في المكان بحثاً عن المحمل، تاركاً الجمّال مُتذمراً بسبب دفعه إلى الانتظار، فقد

خريطة توضح جبل عرفة، مبنية على خريطة من كتاب **الرحلة الحجازية لولي النعمة الحاج عباس حلمي باشا الثاني، خديوي مصر** (القاهرة، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م للكاتب محمد البتنوتي (Muhammad al-Batanuti)).

المخيم المصري في سفح جبل عرفات حيث ألقى النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - خطبة الوداع. أما الحدود الخارجية لقناة الري التي تزود الحجاج بالماء فكان بالإمكان رؤيتها أسفل الجبل.



حجاج توافدوا إلى مسجد نمرة (Namra) في أحد سفوح جبل عرفة عند الفترة الواقعة ما بين صلاتي الظهر والعصر، وقد احتموا بمظلاتهم من حرارة الشمس القائظة. لقد أدى النبي محمد صلاتي الظهر والعصر في هذه البقعة خلال حجة الوداع.

أراد أن يعود إلى مكة ليتعاقد مع المزيد من الحجاج.

حاول السعودي أن يتوجه إلى موقع المحمل المحتمل من خلال موقع القمر بالنسبة إلى جبل عرفة ومن خلال تذكر الموقع السابق الذي توقف عنده المحمل خلال رحلة الحج الأولى. وبينما كان يحدق إلى الأعلى، تعثر السعودي بحبال إحدى الخيام وسقط على وجهه في الوقت الذي كان فيه جميع الحجاج من حوله نائمين في خيامهم، ثم سمع أصوات بعض المصريين، فاقترب منهم ورأى جندياً مصرياً يحرس خيمة تشبه إلى حدّ بعيد خيام شخصيات الدولة.

سأل السعودي الجندي عن مكان وجود الأمير. أجاب الجندي بلهجة رسمية للغاية وأخبره أنه يحظر عليه تجاوز مكانه لأنه إن فعل سيدخل إلى منطقة الحرملك حيث تنام الحاجّات. ابتهج



السعودي عندما ميّز أحدهم صوته ثم تمكن الأول من تحديد موقع خيمته. لكن السعودي لم يهدأ له بال حتى تمكن من إيجاد جماله. قال السعودي: «إن البحث عن الجمال أصعب بكثير من تحديد موقع الخيمة».

كانت الحرارة خانقةً وسط هدوء الليل المطبق، ووصف السعودي الأمر قائلاً: «هنا، يشعر المرء بالحرارة بشدة، أكثر من شعوره بها في أشد ليالي الصيف حرارة في مصر». كانت ليلةً مزعجةً لم يحظ فيها السعودي بنوم مريح غير أن مشهد بزوغ الفجر؛ ذلك المشهد الرائع، عوّض شعوره بالإنهاك: «بزغ الفجر فوق بحر من الخيام البيضاء، الممتدة على مرمى البصر».

كان بالإمكان تتبع امتداد الجبال بعيداً غرب السفح وجنوبه، أما جهة الشمال، فبدا جبل عرفة صغير الحجم، كما ظهر الجرف العظيم المؤدي إلى الطائف (Ta'if) على مسافة بعيدة أيضاً. يتكون جبل عرفة من صخور كبيرة الحجم، «وبدا كأن كل صخرة قد انفصلت عن الأخرى». أما أعلى قمة الجبل البصلية الشكل، فانتصب عمود مربع الشكل مطلي بالطبشور الأبيض ومزين بمصابيح صغيرة تضاء في الليل. راقب السعودي صعود الحجّاج إلى جبل عرفة، وكان يفكر أنهم «يشبهون النمل في حركته المتواصلة».

التقى السعودي بوالدته وزوجات بعض موظفي الدولة المرافقين للمحمل، ثم اقتربوا جميعاً من جبل عرفة برفقة المطوّف حتى يتمكنوا من الصعود في وقت مبكر، متجنبين الحرارة الشديدة. وفي حين تسلق السعودي ومن رافقه الجبل، توقف ليفكر في عظمة هذا المكان وأهميته: «نحن نقف هنا، فوق الصخور التي وقف عليها النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – في حجة الوداع، وحيث ألقى خطبة الوداع».

وسرعان ما صعد السعودي إلى ارتفاعٍ كافٍ، فجعل سفح الجبل تحت قدميه، ووصف المشهد قائلاً: «يمكن للمرء أن يرى سفح الجبل بأكمله، وهو بقعة رائعة يتجمع فيها آلاف الحجاج بخيامهم وجمالهم».

ثم هبط السعودي إلى سفح الجبل من جديد، وطلب من أحد الجنود مرافقته ليتمكن من التقاط صور للمحمل السوري حيث خيم الحجاج السوريون عند الجانب الغربي لجبل عرفة، بالقرب من بئر زبيدة (Zubayda Well)، ثم قام السعودي باستكشاف العمل الهندسي الخاص بقنوات المياه التي أمدت الحجاج بحاجتهم من الماء خلال وجودهم في السفح، وأولئك الموجودين في مِنى ومكة. في الأصل، شُيِّد حوض لتوفير الماء للحجاج الذين تجمعوا حول عرفة، لكن السعودي رأى أن «الحوض قد تلوث من جانب الحجاج الذين استحموا داخله، وقاموا بغسل ملابسهم وكل حاجياتهم من أواني الطبخ حتى أحشاء الخراف. كانت المياه الملوثة واضحةً للغاية في قنوات المياه الضيقة التي انسدّت بسبب الأوساخ».

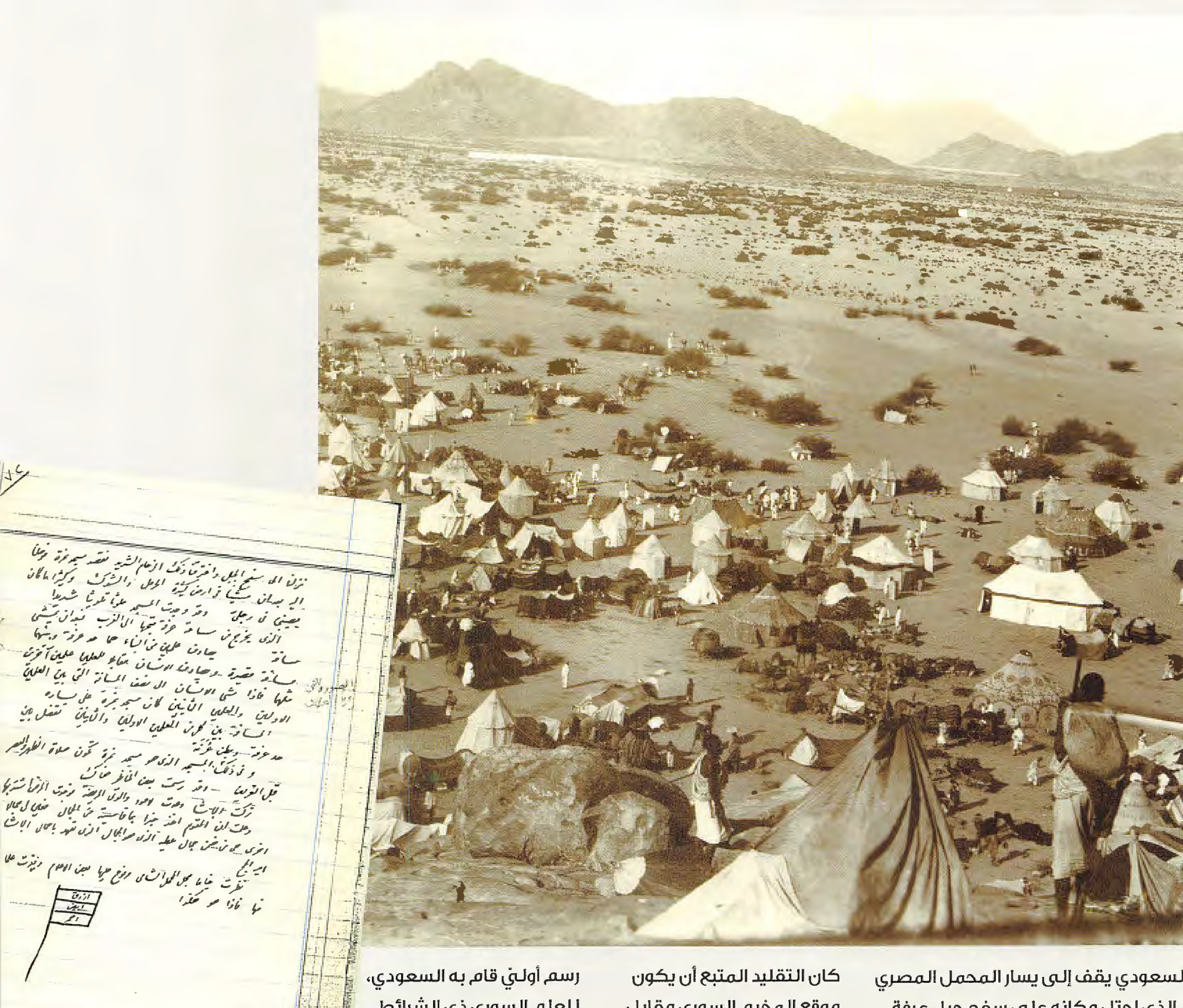
ذكّرت هذه القنوات الضيقة السعودي بضيق الأفق الذي اتصف به المسؤولون الذين «استغلوا مدّخرات الحجاج وأفرغوا جيوبهم وتجاهلوا المصلحة العامة [للحجاج]». وشعر السعودي أن إخفاق المسؤولين في مراقبة نظافة المياه سيؤدي، عاجلاً أم آجلاً، إلى عواقب وخيمة.

عاد السعودي بذاكرته أيضاً إلى رحلة الحج الأولى، فتذكر الاتفاقية التي أبرمها الأمير مع حاكم مكة، والتي تؤكد أهمية الحفاظ على مياه القنوات السابقة الذكر نظيفةً. واستُخدم الجنود للإشراف على الاستخدام الصحيح لهذه المياه من جديد، ونجحت جهود المراقبة هذه لفترة وجيزة. ولكن، سرعان ما تجاهل الجنود واجبهم هذا فتلوثت المياه؛ «ظهرت طبقة من مادة لزجة دهنية حارة على سطح الماء، بالإضافة إلى أرجل خراف وأجزاء من لحمها، وكل أنواع القاذورات».

إن هذا الدليل على تناول اللحوم ذكّر السعودي بحقيقة أن عادات الغذاء اليومية لدى الحجاج تغيرت. يقول السعودي في هذا الشأن: «عادة، أتناول القليل من اللحم في مصر، في حين أنغمس في أكلها هنا [في الأراضي المقدسة]».

تحرك المحمل والقافلة المرافقة له بعد ظهر ذلك اليوم، إلى بقعة فسيحة أمام خيمة الأمير.





السعودي يقف إلى يسار المحمل المصري - الذي احتل مكانه على سفح جبل عرفة - لالتقاط صورته، ويبدو كامل بيك صبري (Kamil Bek Sabri)؛ الحاكم المصري، في الوسط، جاثماً على الأرض.

كان التقليد المتبع أن يكون موقع المخيم السوري مقابل مخيم الحجاج المصريين. ولقد تميز الحجاج السوريون عن غيرهم بخيامهم المزركشة.

رسم أوليّ قام به السعودي، للعلم السوري ذي الشرائط الزرقاء والبيضاء والحمراء، الذي رفرف أعلى الخيام السورية.

استقبل الأمير العديد من الزوار، وكلما سنحت الفرصة، التقط السعودي صوراً للمكان والشخصيات المهمة التي رحبت بالأمير وأظهرت احتراماً له.

وبينما كان السعودي يتجول في المخيم، رأى خياماً ترفرف فوقها رايات مختلفة، وقد استُخدمت كمنارة لإرشاد الحجاج الذي ضلّوا طريقهم. وفضلاً عن ذلك، حملت العديد من الخيام علاماتٍ خاصةً حتى يميزها الحجاج بسهولة. فعلى سبيل المثال، رفع المخيم السوري رايات ذات أشرطة زرقاء، وبيضاء، وحمراء. وقام عدد من المرشدين أيضاً، ممن يحملون راياتٍ مميزةً، بتوجيه الحجاج.

عاش السعودي تجربةً مقيتةً عندما مرّ صدفة بتلّة دُفِنَ فيها بعض الحجاج الذين فارقوا الحياة، وتقع بين خيام المعسكر. «كان من الشائع في معظم أجزاء الحجاز أن يُدفن الحجاج دون أن يُبنى القبر أو يُوضع شاهد [يشير إلى صاحبه]»، مما أثار حفيظة السعودي.

حزن السعودي من افتقار المواطنين للوعي اللازم كي يحذّوا من الإصابة بالأمراض أو انتشارها عبر شرب ماءٍ نظيف، ولعدم حرصهم على اتباع إجراءات دفن صحية؛ «إذا فارق أحد الحجاج الحياة خلال أداء فريضة الحج، تدفنه أسرته، على ما يبدو، بجوار خيمتها! ... وإذا رأى أحد الحجاج حاجاً آخر يشرب من هذه المياه الملوثة، فعليه أن يتحمّل عطشه حتى يتمكن من الحصول على ماء نظيف ... لماذا لا يفعل غالبية الحجاج ما يمكن أن نفعله نحن!».

وعلى الرغم من تأخر الوقت، لم يظهر المقدّم المسؤول عن القوات التي كانت مهمتها ضمان سلامة الحجاج والحرص على صالحهم العام. كان بالإمكان سماع الجميع يتذمر بشأن هذا المقدم ورجاله، كما اعتقد السعودي أن المقدم غير جدير بالاحترام وبخاصة بعد أن شهد محاولات الأخير للسيطرة على عملية تأخير الجمال في مكة، واقتطاع أكبر قدرٍ ممكن من خزينة المحمل عوضاً عن التركيز على مصلحة الحجاج. علم السعودي كذلك أن السلطات في مكة

قامت بمصادرة الجمال حتى ينقص العدد اللازم منها لتلبية احتياجات الحجاج، وذلك لتتمكن السلطات من رفع أجورها، في حين عانى الفقراء من الحجاج وقد تقطّعت بهم السبل في هذه المدينة المقدسة. في تلك الليلة، أُصيبت والدة السعودي بالحمى، ولم يتمكن الأطباء من تشخيص أسبابها بدقة.

وبينما لم يتمكن السعودي من النوم وظلّ يتحرك هنا وهناك، لفت نظره احتفال الحجاج بإطلاق الألعاب النارية. وسرعان ما ألهمته ومضاتها، فأراد أن يجرّب التقاط بعض الصور الفوتوغرافية في ظلمة الليل. جهز السعودي آلة الكاميرا الخاصة به، ونصبها فوق كرسي طويل حصل عليه من خيمة الأمير، ثم جنّد الجنود حتى يمسكوا ببطانيات فردوها فوق رأسه وعدسات آلته. «شعرت داخل هذه البدعة الجديدة أنني أختنق ... وعندما أخرجت رأسي إلى الهواء الطلق، بدا الأمر مثل الشعور بالفرق الشاسع بين فصلي الصيف والشتاء».

أنهكت السعودي مشاعر القلق (بسبب مرض والدته) المختلطة بمشاعر الرهبة التي تملكته عندما صعد جبل عرفة. ووصف الأمر قائلاً: «لم أتمكن من النوم في تلك الليلة، على الرغم من أنني شعرت بإنهاك شديد، أكثر مما شعرت به خلال رحلتي السابقة». على أي حال، استيقظ السعودي قبل شروق الشمس ليرافق الأمير في زيارة قصيرة لصاحب مقام رفيع، تقع خيمته في الجوار. شعر السعودي بالراحة لأن الطقس كان غائماً ولطيفاً ومعتدلاً بالقدر الكافي لحثّ السعودي على تسلق تلة تقع على الجهة المقابلة حيث وقف النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – على جبل عرفة. رافق الأمير السعودي وعبّر كلاهما عن إعجابهما بخيمة مخروطية الشكل، لافتة للنظر، صُنعت من قماش مزركش سوري المنشأ.

عندما اقترب السعودي والأمير من الخيمة، بادر بعض البدو بالتحية لكنهم أومؤوا بعدوانية تجاه آلة الكاميرا. من الواضح أنهم لم يستوعبوا هذه الآلة الغريبة، واستغرقوا بعض الوقت لتقبّل الطبيعة المسالمة لآلة الكاميرا. على أي حال، أصابت الحيرة البدو حيال الهدف الحقيقي من وراء

استخدامها، واستمروا في التحديق في السعودي وهو ينزل التلّة ويلتقط بعض الصور لكتابات منقوشة على الجرانيت لفتت نظر الأمير.

وحين عاد السعودي إلى سفح الجبل، اتجه مسرعاً نحو خيمة والدته للاطمئنان عليها وأدرك أن حالتها تزداد سوءاً، فما يبدو أن ركوبها هذه الجمال السيئة قد أضرّ بها. وفي تلك الليلة حرص السعودي على حصولهما على جمال أفضل من تلك، في المستقبل.

في الثالث عشر من كانون الثاني؛ أي يوم الوقفة، وهو اليوم الذي يسبق عيد الأضحى، وقف السعودي متأملاً كيف كانت الحال في هذا اليوم في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم. في تلك الأيام، تخلص الجميع من أي بضائع مصنّعة، حتى إن ملابسهم لم تكن مخيطة. ومنذ ذلك الحين أصبحت الحياكة نمطاً من الصناعة المبتذلة، على حدّ ظن السعودي.

توجهت القافلة المصرية إلى الطريق المؤدي إلى مِنى عند سماعها طلقة نارية تؤذن ببدء الرحلة. «كان بإمكان أي واحد منا سماع تهليل [الحجاج] وتكبيرهم بلغات مختلفة»، عَبْر سفح جبل عرفة. نظم حراس مسلحون وجدوا على جانبي المحمل، حركة الحجاج لتجنب الاكتظاظ والتزاحم. وعندما نظر السعودي إلى صف الجمال المتحركة، بدت له «مثل قطار جلس فيه الركاب، كلٌّ في مكانه الصحيح».

اتجهت قاطرة الجمال نحو الشمس التي اختبأت أحياناً خلف الغيوم المنتشرة في السماء. كان من الصعب تحديد وقت الغروب بدقة، ومن ثمّ تحديد مواقيت الصلاة، مما أثار قلق السعودي لكنه استفتى قلبه، وفسّر ذلك قائلاً: «لم يأمرنا الله بتحرّي الوقت بدقة متناهية في مثل هذه الظروف».

تكيف السعودي مع حركة جمله مما جعله يدرك أهمية إحسان معاملة الجمّال. لقد تمكن السعودي في نهاية الأمر من إيجاد جمّال رائع وهو عبد سوداني اسمه سَعدة (Sa'ida)، وقد كان يقظاً ومراعياً لمشاعر الآخرين، وبخاصة مشاعر والدة السعودي المريضة. لقد استدعت

حالتها عنايةً حذرةً ولاسيما أنها تسافر على ظهر جمل، لذلك كتب السعودي مذكرة حتى تتم مكافأة هذا الجمّال السوداني بسخاء.

توقف الحجاج عند مزدلفة (Muzdalifa) حيث سطعت مصابيح المسجد وسط الظلام. قام فريق من الجنود الذين تقدّموا الحملة والذين كلّفهم الأمير بنصب مشاعل حول البقعة المخصصة للمحمل. وهنا رُفعت المحفّة فوق الأرض، على الرغم من أن المحمل لم يكن سيخيم على نحو كامل خلال الساعات المتبقية من الليل وذلك بسبب ترقّب عيد الأضحى. قام السعودي بحفظ الشرائح الزجاجية الخاصة بالصور التي التقطها، داخل خزنة الأمير خلال توقف القافلة في مزدلفة، ثم عاد السعودي إلى الشاكداف الخاص به، واستغرق في النوم خلال الساعات الأخيرة من الليل.

الزواق الداخلي الجميل في مسجد الخيف[1] (Al-Khief Mosque).

(1) يقع مسجد الخيف عند سفح وادي منى وتزوره جموع الحجاج سنوياً خلال موسم الحج.



الفصل السادس

العيد

أصبح الجو معتدلاً في العاشر من ذي الحجة، عام 1325؛ أي في اليوم الأول من عيد الأضحى، واستيقظ الحجاج باكراً، ثم انطلقت القافلة المصرية قبل شروق الشمس إلى مِنى التي تبعد مسافة ساعتين ركوباً على الجمال.

تقع مِنى في وادٍ يوجد عند أحد طرفيه مسجد الخيف (Al–Khief)، وهو أحد المساجد المهمة التي يقيم فيها الحجاج الصلاة. أُعجب السعودي «بالهندسة المعمارية البسيطة والمتواضعة للمسجد، بالإضافة إلى مآذنه». يقع مسجد الخيف بجوار إحدى الجمرات الثلاث وهي الأعمدة التي يقذفها الحجاج بالحصى (الجمرات)، وترمز هذه الشعيرة إلى رجم إبليس. حيث يرمي الحاج كل عمود بسبع حصوات في اليوم ولمدة ثلاثة أيام. أدى السعودي والأمير هذه الشعيرة سويةً، ثم جاء دور النساء الموجودات في حرملك المحمل، ليرمين جمراتهن تحت حراسة الجنود المرافقين للقافلة. أما والدة السعودي، فكانت مريضةً جداً فلم تستطع أن تؤدي هذه الشعيرة، فأداها السعودي عنها، ثم قام السعودي بتقصير شعر رأسه كما تفرض هذه المرحلة من شعائر الحج.

قام السعودي بزيارة مسجد الكوثر (Al–Kawthar) قبل عودته إلى مكة. أراد المطوف أن يأخذ السعودي والأمير في جولة ليريا مساجد أخرى، لكن السعودي رفض؛ «لقد نال مِناّ الإنهاك بسبب تراكم النفايات في شوارع مِنى، فلم يتبق لدينا جهد لمتابعة المسير». في واقع الأمر، تخلى العديد من الحجاج الذين توجهوا لزيارة مساجد مِنى عن فكرة الزيارة هذه، فعادوا أدراجهم.

امتطى السعودي جواداً بقية الرحلة، وتابع برفقة إبراهيم بيك مصطفى باشا (Ibrahim Bek Mustafa Basha)؛ المدير الأسبق لدار العلوم (Dar Al–'Ulum) في القاهرة. وسرعان ما نفدت مياه الشرب، لكن السعودي ورفيقه قاوما عطشهما وفضّلا الانتظار حتى يصلا إلى مكة حيث يمكن أن يبتاعا زجاجات الماء المستوردة من إسطنبول، التي توفرها حكومة الدولة العثمانية. ولسوء الحظ، فعندما وصلا إلى مكة وجدا الأسواق مغلقةً احتفالاً بالعيد.

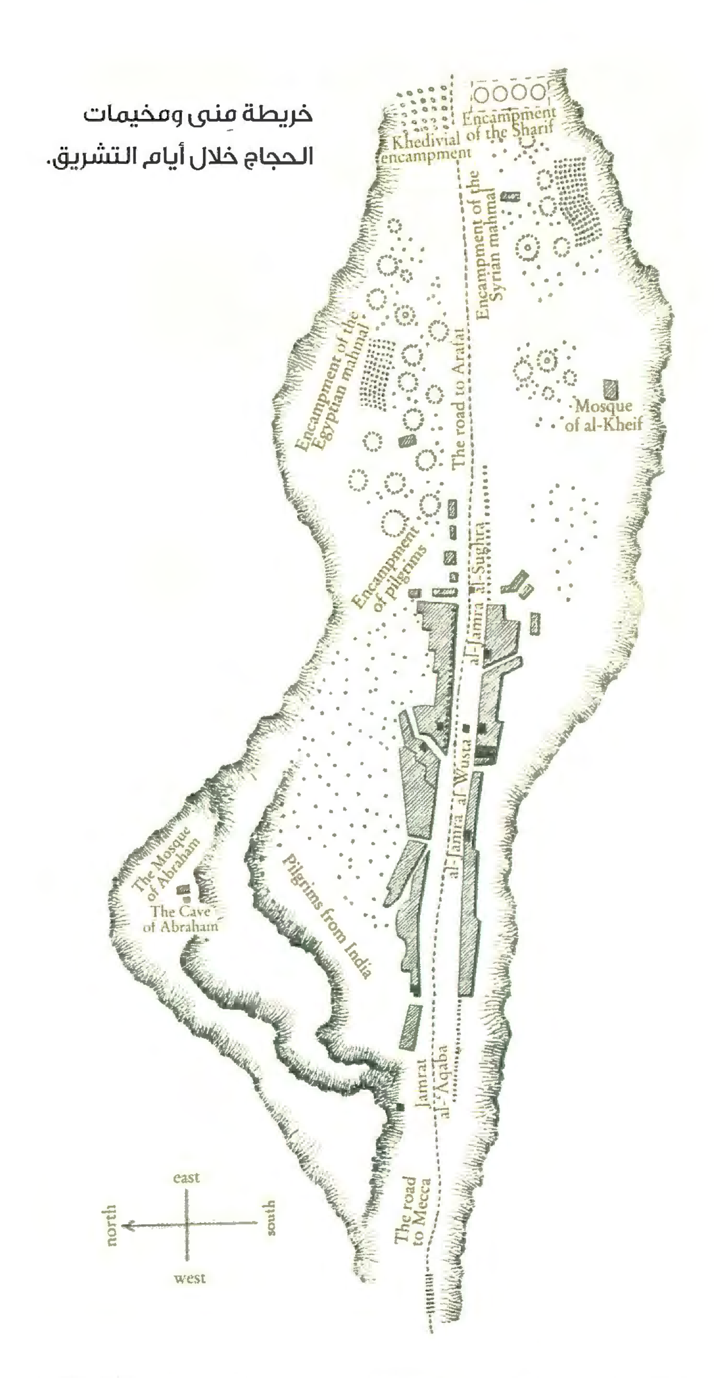
اشتد ظمأ السعودي وإبراهيم بيك مصطفى، وعلى الرغم من ذلك، دخلا المسجد الحرام، وبدآ الطواف، لكن سرعان

ما قاطعتهما الأمطار قبل أن يتمكنا من إتمام طوافهما حول الكعبة. لم يحمل أي منهما مظلة، لذلك ابتلّت المناشف (Bashkirs) التي يرتديها الحجاج فوق ملابس الإحرام في فصل الشتاء ليشعروا بالدفء. على أي حال، استغل السعودي ورفيقه هطول الأمطار ليطفئا ظمأهما، فاستعارا إناءً جمعا فيه الماء المنهمر من المزاريب. ثم شربا من ماء زمزم بعد أن تأكدا أن استخدام الدلاء التي أُعطيت لهما، صحيّ تماماً. أما مياه زمزم فكانت فاترة.

هدأت العاصفة بعد أن غسلت الأمطار الشوارع. تجاهل السعودي الطين والماء اللذين لوثا منشفته، فأدى شعيرة السعي بين الصّفا والمروة، وعندما انتهى من السعي، التقى السعودي صدفة بمطوفٍ دمث، جلب له حصاناً.

ذكّرت مياه الأمطار التي غطّت الشوارع، فباتت مثل أنهار جارية، السعودي بالجدل الذي دار حول توسيع الطريق الرئيس المؤدي إلى المسجد الحرام. عارض رجال الدين الفكرة، لرغبتهم في إبقاء الطريق على حاله كما كان منذ عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم، غير أن السلطات العثمانية رغبت في دفع خطط التحديث وجعلها جزءاً من أرض الواقع. شعر السعودي أن هذه التوسعة ستوفر حيزاً مكانياً أكبر للباعة الذين يفترشون الشارع، وسيكون ذلك على حساب أصحاب الدكاكين التقليدية، وسيؤدي ذلك

خريطة مِنى ومخيمات الحجاج خلال أيام التشريق.



خريطة مِنى مبنية على خريطة ضمنها إبراهيم رفعت باشا كتابه **مرآة الحرمين أو الرحلة الحجازية والحج**، ويقع الكتاب في جزئين (القاهرة، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م). الجزء الأول، ص. ٣٢٣، الصورة رقم (١٢٠).

بساطة إلى تراكم المزيد من القمامة.

«لقد تحول المكان، لسوء الحظ، إلى مكب نفايات تراكمت فيه الكلاب النافقة أو تلك التي تجوبه بحثاً عن الطعام ... لا بدّ من الحفاظ على نظافة هذا الطريق وطهارته ليكون مثل المساجد ... وعلى السلطات أن تُبعد عربات البضائع حتى لا تعيق حركة الأفراد».

سلك السعودي وإبراهيم بيك مصطفى الشوارع الخلفية لمكة حتى يتجنبا الحشود ويبحثا عن مقهى يحتسيان فيه كوباً من الشاي حتى يشعرا بالدفء بعد أن بلّلتهما مياه الأمطار. بدأ السعودي يتصبب عرقاً، وأخذ تارةً يشعر بشدة الحر وتارةً أخرى بالبرد. وعندها، نصحه رفاقه بحكّ جلده حتى تتعادل درجة حرارته ويبدو أن هذه الطريقة قد نجحت. «أنا واثق أنني لو كنت في مصر الآن لأصبت بالبرد».



مسجد الخيف ويعود إلى عهد الدولة العباسية، ولقد أدى النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - الصلاة في هذه البقعة، المعروفة بالخيف، خلال حجة الوداع حين زار المكان في اليوم الأول لعيد الأضحى. وعندما أدى السعودي فريضة الحج للمرة الأولى عام ١٩٠٤، توقف حجاج شمال إفريقيا في المكان واستغلوا الفرصة لتنظيف لحوم الأضاحي الطازجة وطهيها في اليوم الأول لعيد الأضحى.

بحلول اليوم الثاني للعيد، كانت والدة السعودي ماتزال مريضة، ولقد اضطر السعودي إلى تركها ليرافق الأمير إلى سُرادق شريف مكة كي يستمع إلى الفرمان[1] الإمبراطوري الصادر عن السلطان العثماني والخاص بالحج. كانت قراءة الفرمان قد بدأت عندما وصلا، وكان حشد عظيم قد تجمع في الخارج. راقب مسؤولو الصحة كل من يدخل إلى خيمة الشريف المهيبة للتأكد من أنهم قاموا بدهن أجسامهم بمرهم يُعرف بمرهم السُّليماني (Al-Sulaymani)، لمنع انتشار الكوليرا. لقد ساهم القلق حيال انتشار وباء الكوليرا في تخفيض مستوى الاحتفال.

بقي السعودي خارج خيمة شريف مكة، بالقرب من وحدات الحراس العثمانيين، وتمكن من سماع قراءة الفرمان على نحو جيد جداً. وتبين للسعودي أن هذا الفرمان يصب في

(1) أُطلقت كلمة فرمان على القوانين أو المراسيم التي أصدرتها الحكومة العثمانية. (المترجم)



تحرك الحجاج إلى مسجد الخيف في مِنى يوم الوقفة.

موضوع الفرمان السابق الذي أصدره السلطان السابق، عون الرّفيق[1] (Aun Al–Rafiq')، وقد استمع إليه السعودي في رحلة الحج السابقة. ووجد السعودي أن المرسوم الجديد «يزخر بعبارات تعكس غروراً واضحاً، وتملقاً مبالغاً فيه وأكاذيب جليّة». قُرئ المرسوم في بادئ الأمر بالتركية ثم بالعربية. لاحظ السعودي أن الترجمة العربية لم تتطابق مع المرسوم الأصلي الصادر باللغة التركية.

وكلما استمع السعودي إلى المزيد، ازداد سخطه: «فكيف يمكن للسلطان [العثماني] الذي يطلق على نفسه لقب خليفة المسلمين أجمعهم، أن يُصدر مثل هذا المرسوم! ... آه لو أن السلطان يعلم بالوضع الحقيقي هنا في الحجاز ...».

أُطلقت العيارات النارية معلنة نهاية مراسيم الاحتفال الخاص بقراءة المرسوم العالي، ثم انحنى الجميع ووضعوا أيديهم على صدورهم ليُظهروا احترامهم لسلطة الباب العالي. وبعد ذلك، غادر الضيوف من الشخصيات المهمة برفقة حاكم مكة، وعندها تفرق الجمع فقام بعضهم بزيارة العديد من ذوي المقامات الرفيعة في الخيام المهيبة الأخرى التي شُيدت خصيصاً لهذه المناسبة.

توجه السعودي إلى خيمة محسن باشا (Muhsin Pasha)؛ صهر الشريف علي باشا، أمير مكة آنذاك. وبعد أن أظهر احترامه لمحسن باشا، توجه إلى خيمة أحمد راتب باشا (Ahmad Ratib Pasha)؛ الحاكم العثماني لأرض الحجاز. وبعد ذلك زار السعودي أمين خزانة المحمل السوري. لقد جعل البروتوكول العثماني أمين الخزانة في منزلة أعلى من منزلة أمير الحج التركي، ويحصل كل من يشغل هذا المنصب على مبلغ سخي خلال موسم الحج.

تلا ذلك، زيارة السعودي لعبد الرحمن باشا (Abd Al–Rahman')؛ أمير قافلة الحج السورية، الذي التقى به خلال رحلة الحج السابقة. لم يرق هذا الرجل للسعودي الذي وجده

(1) عون الرفيق: أو عون الرفيق باشا بن محمد عبدالمعين (الحاكم 79 من سلسلة حكام مكة وقد حكم مكة ما بين عامي 1299هـ و 1323هـ. أنعم عليه السلطان العثماني برتبة باشا أما «عون الرفيق» فهي كنيته. (المترجم)

كانت الخيام تنصب عادة بجوار بعضها ولذلك كان من الصعب على الحجاج المرور بسبب الحبال الداعمة لهذه الخيام. ففي إحدى المرات، تعثر السعودي بهذه الحبال وسقط على الأرض، ومرة أخرى اضطر إلى طلب المساعدة لإبعاد هذه الحبال حتى يمهد الطريق لمرور جَمَله.



توضح هذه الصورة كيف تسبب المخيم في مِنى بخلق صعوبة في تنظيم خيام الحجاج، وتوفير حيز كافٍ لمرور الجمال والخيول والحمير.



كان من المعتاد، ثاني أيام عيد الأضحى، زيارة خيام ذوي المقامات الرفيعة الذين وجدوا في الحج. هذه صورة التقطها السعودي لمجموعة من الحجاج الهنود بمن فيهم وريث أمير ولاية بوبال (Bhopal). أما الفتاة الصغيرة فهي ابنة اللواء رفعت؛ أمير الحج.

الجمرة الوسطى، وهي ثاني الأعمدة التي يقذفها الحجاج بالحصى كرمز لرجم إبليس. كان الحجاج حساسين للغاية تجاه وجود آلة التصوير الفوتوغرافي أثناء أدائهم هذه الشعيرة لاعتقادهم أنها فأل سيئ.



مملاً: «احتوى حديثه على العبارات التافهة ذاتها التي لا معنى لها، والتي ردّدها بأسلوب مهذب إلى حدّ التصنع».

أنهى السعودي جميع الزيارات التي فرضتها اللياقة والكياسة، ثم شق طريقه عبر جموع الحجاج الذين كانوا يحتفلون بالعيد؛ «كان من الصعب العبور وسط الأضاحي الملقاة على الأرض وغيرها من البهائم التي ذُبحت وتفوح منها رائحة كريهة، عفنة».

كان التناقض الرهيب بين فخامة الخيام المهيبة الخاصة بذوي المقامات الرفيعة وتلك الطرقات المهمَلة واضحاً بقوة، مما أثار حنق السعودي: «يتناقض الاحتفال الصاخب في مِنى والقذف الأرعن للأضاحي جانباً مع مبادئ الإسلام ... لقد امتلأت عقول ذوي الفخامة بالمبادئ المغلوطة ... لا يكمن المفهوم الحقيقي للحج في ركوب خيول زُينت سروجها بزخارف ذهبية، بل هو، في المقام الأول، تجمّع ديني، ويجب ألاّ يتحول إلى أمرٍ تافهٍ، فارغٍ، غير مجدٍ».

زار السعودي والأمير، بعد ظهر ذلك اليوم، محيي الدين أفندي (Muhi Al–Din Effendi)، وهو أحد أقرباء السعودي الذي يقع منزله في مِنى مقابل الجمرة الصغرى. سمح محيي الدين باشا للسعودي باستخدام سطح منزله لالتقاط صور لشعيرة رمي الجمرات، التي تعذّر تصويرها بسبب عدائية الجماهير. سُرّ السعودي لأنه تمكن من التقاط صور نادرة لهذه الشعيرة، ثم قام برمي الجمرة الصغرى بنفسه، وكرّر الشعيرة برمي الجمرة الوسطى والجمرة الكبرى أو ما يُعرف بجمرة العقبة الكبرى (Al–'Aqaba).

قام السعودي برمي الجمرات بدلاً من والدته التي كانت طريحة الفراش. وبينما فعل ذلك، لاحظ السعودي امرأة تقوم بحركات عجيبة غريبة، «وكأنما أصابها مسّ من الشيطان كما أوحت إيماءاتها وهي تقوم برمي الجمرات». وعندما انتهت من أداء هذه الشعيرة، بدا وكأن محاولتها للخروج من حالة اللاوعي هذه، قد استنزفت قواها. وفي حين ابتعد السعودي عن أعمدة الجمرات، لاحظ أن «بعض المصريين اختاروا البصق على جدران الجمرات الصغرى



شعيرة رمي الجمرات على جمرة العقبة الكبرى. اضطر السعودي إلى التقاط الصورة من مؤخرة منحدر جبلي حتى يتجنب إزعاج الحجاج.

وذلك لردع الشيطان، كما قيل له».

قرر كل من السعودي والأمير محيي الدين أفندي؛ قريب السعودي، بعد انتهائهما من أداء هذه الشعائر، تسلق جبل يوجد على يسار الطريق، يؤدي بهما إلى مكة. وقد اتبعا درباً أفضى إلى نقطة حيث يمكن الحصول على منظر شامل عظيم مهيب، يُمكّنهما من التقاط العديد من الصور الفوتوغرافية. وفي حين انشغل الرجلان بالتقاط الصور، لفت صنيعهما نظر بعض البدو الذين اختلطوا بالحجاج.

اقترب البدو من الأمير والسعودي بطريقة توحي بالتهديد والوعيد وسألوهما عما يفعلان. كان السعودي في تلك اللحظة يمسك بآلة التصوير الخاصة به، والتي لم ير البدو مثيلاً لها من قبل، فأثارت في داخلهم الشك والريبة. شرح السعودي للبدو، وذلك لتجنب المتاعب، أن كاميرته هذه تعمل عمل المنظار. وسمح لهم الأمير بالإمساك بآلة التصوير الخاصة به ليوضح للبدو كم هي آمنة! «ثم شرح الأمير أن هذه الآلة تستخدم لغرض تأريخ



مسجد الحرامه دخول ايدن سيلاب سببيله كعبة اللهك



نهاية صلاة الجمعة الأخيرة، قبل مغادرة السعودي لمكة بعد أن قضى كانون الثاني من عام ١٩٠٨، بأكمله تقريباً داخل وحول المدينة المقدسة.

توضيح درامي للسيول التي ألحقت الضرر بأحجار الكعبة في القرن التاسع عشر. شهد السعودي خلال رحلة الحج الثانية هطول مطر غزير غمر الشوارع الرئيسة، ولعله رأى صورة السيل هذه في كتاب الجنرال التركي الذي صدر في عام ١٨٩٠. (مشاهد للحرمين، تأليف الجنرال صبر أيوب، مجموعة خاصة بالمكتبة الفريدية).

شعيرة رمي الجمرات والحجاج الذين يمارسونها».

بدا وكأن البدو لم يقتنعوا بكلام الأمير لكنهم لم يجادلوا. أما السعودي فكان قلقاً للغاية ومتوتراً إذ لم يكن واثقاً من ردة فعل «أبناء هذه القبائل البدائية، العاجزين عن استيعاب الموقف». نزل السعودي والأمير إلى سفح الجبل، كإجراء احترازي، وابتعدا بسرعة فائقة.

وعلى أي حال، لم ينته الأمر عند هذا الحدّ، فعندما عاد السعودي إلى منزل محيي الدين أفندي، بادرت مجموعة من البدو - كانوا ينتظرون خارج المنزل وقد تمّ انتدابهم، على ما يبدو، من قِبَل القبيلة - بالحديث. طلب البدو مقابلة رب البيت، وعندها تقدّم محيي الدين أفندي وقدم نفسه، ثم سأله البدوي: «هل كنت مؤخراً برفقة هذا الرجل المُحرِم والنصراني الآخر»؟

أدرك السعودي أنهم يتحدثون عنه، «الرجل المحرِم»؛ أي الذي يرتدي ملابس الإحرام، وعن الأمير الذي وصفوه بالنصراني لأنه يرتدي زياً مختلفاً. وقبل أن يتمكن أي من السعودي أو الأمير من توضيح الأمر، أشار البدو إلى زجاجة احتوت على أملاح الشم[1] (Smelling Salts) كان محيي الدين يمسك بها بالقرب من أنفه.

«إنك تحمل قنينةً تقوم بفتحها بحذر شديد وأنت تمسك بأنفك، أنا واثق أنها تحتوي على نوع من السّم لإيذاء الحجاج وقتلهم كما فعل المسيحيون حين كان الحجاج في طريقهم إلى المدينة».

أجاب محيي الدين أفندي قائلاً: «الحقيقة أنني كنت أحاول تجنب الرائحة النتنة المنبعثة من أجزاء الحيوانات المتعفنة، فاستنشقت قليلاً من محتوى القنينة».

كان البدوي عنيداً للغاية، فرفض أن يصدق ما قاله محيي الدين وادعى أنّ أخاه فارق الحياة بينما كان في طريقه إلى المدينة لإصابته بالأمراض التي تسبب اثنان من المسيحيين كانا يحملان

---

(1) لعلّ المؤلف يعني «السعوط» الذي يُطلق عليه العامة «العطوس»، وهو دقيق التبغ الذي يدخل في الأنف أو يشم ويستنشق لاعتقاد بعضهم أنه طارد للزكام، فضلاً عن عمله كمنبه جسدي وذهني. (المترجم)

ناظوراً (Al–Nadur)، بانتشارها، وبالتأكيد، كان المسيحيان المعنيان يحملان آلة تصوير خاصة بهما.

ثم أضاف البدوي قائلاً: «إن من يستخدم الناظور قادر على رسم ما يراه على ورقة ثم يقوم بحرق هذه الورقة، ومن ثمّ يموت صاحب الرسم».

احتكم الجميع إلى أحد شيوخ البدو، وحاول محيي الدين أفندي أن يفسر له حقيقة الأمر، إلاّ أن البدوي الغاضب قاطعه وخاطب الشيخ قائلاً: «دعهم يرسمون صورتك، ثم يقومون بحرقها، وعندها ستفارق الحياة قطعاً!».

سمح الشيخ للبدوي أن يتابع حديثه إلى أن انتهى وهدأ. عندها، تبين السبب الحقيقي وراء شعور هذا البدوي بالذعر، فقد اتضح أن البدوي اعترف للشيخ أنه رأى الحجاج الثلاثة وهم يتسلقون الجبل وقد حملوا آلة غريبة، فقام البدوي بجمع بعض أفراد عشيرته الذين تسلحوا ببنادقهم وأرادوا إطلاق الرصاص على هؤلاء الحجاج انتقاماً لموت أخي البدوي المعني الذي فارق الحياة مؤخراً. لحسن الحظ لم ينفّذ هؤلاء البدو خطتهم، فلقد امتنعوا عن ذلك في اللحظة الأخيرة، لأنهم سمعوا حكايات عن قوة آلة التصوير تلك، فخشوا أن تتسبب لهم بالأذى.

وبزوال التهديد الذي كان مصدره الضغينة الخطرة التي اشتعلت داخل هذا البدوي، تمكن السعودي والأمير من متابعة شعيرة الرجم في اليوم الثاني[1]. mشعر كلاهما بثقة عالية بالنفس مكّنتهما من السير، وقد حمل كل منهما آلة التصوير الخاصة به، وقاما بالتقاط صور لشعيرة رمي الجمرات من بقعة أفضل من المكان السابق (خلفية المنحدر الجبلي) تقع بجوار مسجد الخيف؛ «الحمدلله أننا تمكنا من التقاط صور فوتوغرافية دون مصادفة أشخاص من أمثال هؤلاء البدو الحاقدين».

في تلك الأثناء، وصلت أنباء مرض والدة السعودي إلى مكة، فحضر حسن أفندي حلمي (Hasan Effendi Hilmi)، أحد أقربائها، إلى مِنى لزيارتها. اقترح حسن أفندي بعد أن رأى

---

(1) إذا لم يتمكن الحجاج من رمي الجمرات أول أيام التشريق (وهو يوم الحادي عشر)، فإنه يفعل ذلك في اليوم الثاني أو الثالث بعد الزوال. (المترجم)

حالتها الصحية، أن تُنقل إلى مكة بعد صلاة الفجر لتجنب تزاحم الحجاج، وحرصاً على راحتها. خشي السعودي أن يتعارض ذلك مع شعيرة رمي الجمرات في اليوم الثالث والأخير من أيام العيد. على أي حال، أكد حسن أفندي حلمي أن عودتهم المبكرة لا تتعارض مع التشريع الإسلامي، أما السعودي فقبل هذه الفتوى.

أمطرت السماء بغزارة خلال الليل وتسربت المياه إلى داخل الخيمة، فأتلفت بعض محتوياتها ولكنها، لحسن الحظ، لم تدمر أيّاً من شرائح السعودي الزجاجية الفوتوغرافية. نام العديد من الحجاج الفقراء في العراء في مِنى، دون أي حماية من مياه الأمطار الغزيرة الجارفة. أسرّ السعودي شعوره حيال هؤلاء الحجاج في يومياته فكتب قائلاً: «خطر ببالي أن الحجاج يجب أن يوجههم زعيم (Za'im) أو قائد في مصر ليخبرهم عما يحتاجونه قبل السفر إلى الحج ... ولا يجب عليهم الخروج إلى الحج إذا لم يكونوا قادرين على تحمّل نفقات حاجياتهم الأساسية اللازمة للقيام بهذه الرحلة».

غادر السعودي ووالدته بعد صلاة الفجر. اهتم سعدة؛ العبد السوداني، بالجمال ورتّب حاجيات السعودي ووالدته بدقة متناهية، واعتنى بكل ما من شأنه أن يحقق راحتهما. على أي حال، لم تكن مغادرة المكان سهلة، فلقد اضطرت الجمال إلى شق طريقها بين الخيام التي نُصبَت بجوار بعضها.

«اضطررت إلى طلب مساعدة الأمير في بقعة محددة [من المخيم]، فأمر خدمه بإنزال بعض حبال الخيام حتى تتمكن الجمال من العبور. كان الحيز المتوافر في المخيم ضئيلاً للغاية، ولذلك نشبت مشاجرات، حيناً بعد آخر، بين الحجاج وموظفي المحمل حول أين يجب عليهم نصب خيامهم».

وعندما خرج السعودي ووالدته من المخيم، كانت الرحلة إلى مكة هادئة، فقد خلت من أي حدث غير اعتيادي. توقف السعودي، قبل دخولهما مكة، ليتأكد من التقاط صورة جيدة

لجبل النور الرائع حيث نزل الوحي على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – للمرة الأولى. كتب السعودي واصفاً هذه اللحظة: «آمل أن تترك هذه الصورة أثراً خالداً».

توجه السعودي حين وصل إلى مكة، إلى منزل قريبه إبراهيم أفندي صدقي الذي توسل إلى الأول عندما وصل من جدة، كي يقيم في منزله. وقبل أن يخلع منشفته، طلب السعودي من إبراهيم أفندي أن يلتقط له صورة بزي الإحرام لتخليد ذكرى هذه اللحظة.

بدأت تمطر من جديد، واستمر المطر ثلاثة أيام، من الظهيرة حتى حلول الظلام. غطّت السيول الشوارع وجرفت الأكشاك التجارية وتسببت بانهيار بعض المباني كذلك. لم ينج من الدمار أي من شوارع المدينة. وحسب الأمير، شهدت مكة في شهر كانون الثاني ذلك، أكثر الأمطار غزارة منذ ثلاثة عقود. لقد شكلت الأمطار في بقعة واحدة سيلاً بلغ عرضه خمسين متراً، وفي المناطق المنخفضة من المدينة ارتفعت مياه السيول إلى مترين.

فزع السعودي بسبب عدم استعداد السلطات لمواجهة مثل هذه الكوارث. لاحظ السعودي، على سبيل المثال، أن السلطات لم تتخذ أي إجراء لحماية شارع المسعى (Al–Mas'a)، وهو أحد أهم شوارع المدينة حيث تتمركز الدكاكين الرئيسة التي تقدم الطعام للحجاج، وحيث يوجد منزل أبي سفيان (Abi Sufyan)؛ زعيم قبيلة قريش وأحد أسياد مكة في الماضي. كان أبو سفيان في البداية كافراً، لكن ابنته أم حبيبة (Umm Habiba) اعتنقت الإسلام رغماً عنه وتزوجت الرسول – صلى الله عليه وسلم. لكّن أبا سفيان اعتنق الإسلام في نهاية الأمر؛ بعد دخول الرسول إلى مكة.

وبينما أوشكت إقامة السعودي في مكة على الانتهاء، خيّم أمران على التحضيرات للرحلة البرية المتجهة إلى المدينة المنوّرة. أول هذين الأمرين هو الضغينة التي أسرّها حاكم مكة ضد الطبيب سليمان بيك حمادة؛ مندوب مصر لسلطات الصحة البحرية في أرض الحجاز الذي تعرّف عليه السعودي جيداً في المحجر الصحي في محطة الطور. سعى الحاكم إلى طرد سليمان

بيك من منصبه، عبر رسائل شكوى بعث بها إلى الأمير، وحاول خلالها تشويه سمعته. تمكن أمير الحج بالتدريج من تبديد اعتراضات الحاكم، حتى تلك القائلة بأن سليمان بيك حمادة لم يكن مسلماً بل درزياً! أما بالنسبة إلى السعودي، فلقد أكدت هذه الحادثة مدى تفاهة بعض الأشخاص الذين يشغلون المناصب العُليا.

الأمر الثاني يتعلق بعلي بهجت الذي التقاه السعودي في مكة بعد الاحتفال بعيد الأضحى. لم ينس أي منهما الخلافات التي نشبت بينهما، وفي أحد الأيام، وقُرب نهاية كانون الثاني، أعلن علي بهجت دون سابق إنذار أن مهمته في أرض الحجاز قد انتهت، وأنه سيعود إلى مصر على متن القارب التالي. وأوضح كذلك أن على السعودي أن يتحمل نفقات رحلته إذا أراد الأخير أن يكمل الحج ويسافر إلى المدينة المنورة.

لم يكن بالإمكان دفع علي بهجت إلى تغيير رأيه، فغادر بالفعل عائداً إلى مصر. غضب السعودي بشدة لأنه اعتمد على النقود التي في حوزة أمين خزانة المحمل، والتي هي في الواقع باسم علي بهجت، لتغطية نفقات رحلته وبخاصة بعد أن سُرقت مقتنياته الثمينة في السويس. لحسن الحظ، تعاطف الأمير مع السعودي في محنته تلك، ووافق الأول على تحمّل نفقات السعودي لما تبقى من رحلة الحج، عبر مرسوم مكتوب يضمن للأخير ذلك.

تمكن السعودي في الأيام التالية من ربط الأمور لتفسير رحيل علي بهجت المفاجئ. حيث يبدو أن الباب العالي أو السلطات العثمانية أصدرت أمراً لحاكم مكة يضع علي بهجت تحت المراقبة لاعتقادهم أنه كان جاسوساً. لكن الأمير دافع عن استقامة علي بهجت، عالم الآثار، على الرغم من أنه وجده غريب الأطوار وسريع الغضب. على أي حال، زعم حاكم مكة أنه لا يستطيع التدخل لصالح علي بهجت الذي عرّض منصبه للخطر عندما ضُبط وهو يرسم داخل الأضرحة المقدسة وهذا عمل مُحرّم على نحوٍ صارم وذلك حسب فتوى أصدرها شيخ الإسلام. وفي حينه، صدر أمر بمنع علي بهجت من إتمام عمله، فأدرك أنه يجب ألا يغامر

بتحدي الفتوى، ومن ثمّ فإنه لن يتمكن من التنقيب عن الآثار بفاعلية وكما يجب. وانتهى السعودي إلى الاعتقاد: «إذا ما تابعت السفر برفقة علي بهجت، كان الأمر سينتهي برصاصتين تقتلانا معاً».

يظهر في الصورة سطح بئر طوى[1] (Tawa)، الذي استخدمه الرسول - صلى الله عليه وسلم. استحم الحجاج المصريون هنا قبل انطلاق قافلتهم إلى المدينة المنورة. أما خلف المخيم فتمتد الحدائق الغناء التي أنشأها عون الرفيق ('Aun Al-Rafiq)؛ شريف مكة في القرن التاسع عشر، وكان طاغية وعُرف بسفاح مكة (Butcher of Mecca).

(1) الطّوى كلمة فصيحة وتعني البئر المطوية بالحجارة. واكتسبت البئر أهمية خاصة فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم بات في منطقة طوى ليلة فتح مكة، وانطلقت جيوشه منها إلى داخل مكة من طرق مختلفة. (المترجم)



الفصل السابع

الخطر المرتبط بالطريق إلى المدينة المنورة

كان السفر، طوال الفترة السابقة وخلال رحلة الحج هذه، عبر دروب سلكتها الكثير من القوافل، ولمسافات قصيرة، إلاّ أن الرحلة البرية إلى المدينة المنورة كانت أطول وأكثر خطورة.

سلكت القافلة المصرية في السابق، خلال رحلة الحج الأولى التي قام بها السعودي، طريقاً مغايراً أدى بالقافلة من مكة إلى المدينة، وذلك لتجنب خطر القبائل العدائية. اضطر الحجاج المصريون آنذاك إلى الإبحار من جدّة إلى مدينة ينبع[1] (Yanbo)، ثم المتابعة براً باتجاه المدينة المنورة. والآن، يبدو أن الخطر قد تزايد فلقد انتشرت شائعات في المخيم المصري مفادها أن شريف مكة قد أرسل جواسيس تقدّموا القوافل لتحريض قبائل البدو على نصب كمين للمحمل المصري والسوري كذلك.

ارتبطت هذه الشائعات بظهور فكرة إنشاء سكة الحجاز الحديدية، التي ستمتد من دمشق إلى المدينة المنورة، والتي كان يُفترض تدشينها في وقت متأخر من ذلك العام، وأن تمتد أيضاً لتصل إلى مكة المكرمة، ومن ثمّ تساعد في اختصار أسابيع قضاها الحجاج في السفر لأداء فريضة الحج. وقد خشيت قبائل البدو والمسؤولون أيضاً أن يخسروا مبالغ كبيرة هي أشبه برسوم انتزعوها من الحجاج للسماح لهم بعبور الطريق.

كتب السعودي في يومياته: «يُقال إن السلطان متحمس لرؤية خط سكة حديدية يمتد جنوباً إلى اليمن بأسرع وقت ممكن».

ولتحقيق هذا الهدف، استشار السلطان كلاً من حاكم وشريف مكة لبحث أفضل الإجراءات للبدء بتوسيع مدى سكة الحجاز الحديدية. غير أن حاكم وشريف مكة سعيا إلى المماطلة وتحدثا عن الكثير من العقبات لأنهما أدركا أن مشروع التوسعة هذا، وهو ما يرغب السلطان في تحقيقه، يشكل تهديداً لاستغلالهما للحجاج، الذي يدرّ عليهما ربحاً كبيراً. وأهم هذه العقبات عدائية البدو المسلحين الذين عارضوا وجود محطة الحجاز، مما برّر ارتفاع الأجور التي حصّلها الجمّالون مقابل جمالهم.

---

(1) تقع مدينة ينبع السعودية على ساحل البحر الأحمر. (المترجم)

وصل ثمن استئجار الجمل الواحد في رحلة الحج الثانية للسعودي سبعة عشر جنيهاً ونصف، وقد «عدّه الأمير مبلغاً مبالغاً فيه مقارنة بالأجور في السنوات السابقة على الرغم من أنه توقع أن الرحلة ستكون أقصر من ذي قبل، فرفض الأمير السعر المطروح». ولكن أدت المفاوضات إلى تخفيض السعر إلى ستة عشر جنيهاً شريطة دفع مبلغ إضافي إذا كان الطريق أطول مما هو متوقع.

كانت القافلة المصرية على وشك التوجه إلى المدينة المنورة في الحادي والثلاثين من كانون الثاني، بعد أن قضت قرابة شهر في مكة وضواحيها. أدى السعودي صلاة الجمعة، قبل أن يغادر، بالقرب من المكتبة السلطانية الواقعة بجوار باب السلام. ثم توجه السعودي إلى مكتب البريد لإرسال رسائل إلى القاهرة، بالإضافة إلى أجزاء من يومياته انتهى من كتابتها ولاسيما ذلك الجزء الذي يتحدث عن انهيار علاقته بعلي باشا. طلب السعودي أن تُرسل رسائله عبر البريد المسجل، إلاّ أن مدير مكتب البريد رفض ذلك عندما علم بوجهة الرسائل، مؤكداً أنه ما من بريد مسجل يتجه إلى مصر.

كانت هذه هي المرة الثانية التي يرفض فيها مدير البريد قبول بريد مسجل. «لقد أدركت أنه لا يمكنني ترك مثل هذه الوثائق في عهدة هؤلاء الأشخاص الذين يتصرفون بصورة سلبية، فيختارون حسب أهوائهم أي بريد يجب أن يخضع للمراقبة وأي بريد يُعفى من ذلك، ويسمحون بإرسال البريد الذي يحوز إعجابهم».

اختار السعودي أن يؤدي طواف الوداع برفقة حسين حلمي أفندي، الذي ارتبط اسمه بقسم المحاسبة التابع لحكومة الحجاز. لقد لعب هذا الرفيق الصالح دوراً مهماً في تنظيم زيارات إلى مواقع شيقة عديدة، وكان مصوراً فوتوغرافياً واسع الخبرة كذلك. شعر السعودي بالامتنان الشديد للجهود التي بذلها حسين حلمي أفندي، فكتب الأول في يومياته قائلاً: «لقد كرّست الكثير من أعمالي الفوتوغرافية المهمّة له».

وبينما كان السعودي في المسجد الحرام، التقى صدفةً بالأمير وبعض أفراد حاشيته، الذين كانوا يؤدون طواف الوداع. «لاحظت أن بعض زوّار الكعبة أصروا على مغادرة المسجد الحرام عبر السير إلى الوراء حتى يستمروا خلال ذلك في مواجهة الكعبة ... وتلك بدعة ابتدعتها بعض الطوائف، وأصبحت بمرور الزمن تقليداً شائعاً على الرغم أنها ليست جزءاً من تعاليم الشريعة».

عبّر السعودي عن امتنانه الشديد لأقربائه لما أبدوه من حسن الضيافة ثم ودّعهم بحرارة بعد أن حزم أمتعته واستعد للرحيل إلى المدينة المنورة: « ليحمهم الله عزّ وجل لأنهم غمروني بكرمهم». وبقلبٍ حزين، توجه السعودي إلى المخيم المصري وقد تبعه بعض أقاربه الذين حرصوا على سلامته حتى اللحظة الأخيرة. قام اثنان من العبيد الذين استأجرهم عطيّة بن هنيدي الجمّال (Atiyya Ibn Hunaydi Al-Jammal)؛ الرجل المسؤول عن توفير وسائل تنقل الأمير، بحمل حقائب السعودي.

بدأت القافلة في حزم أمتعتها فجراً وسط فوضى عارمة حيث تدافع الحجاج هنا وهناك ودار جدل كبير بينهم وبين الجمّالين. وفي حين أراد الأمير أن يُرضي الجميع، التف الحجاج حوله وتوسلوا إليه حتى يحل مشاكلهم وبخاصة المتعلقة بالجمال إذ حاول أصحابها خداع الحجاج من خلال فرض أجور عالية واستغلالهم كلما سنحت الفرصة.

أسرّ السعودي مشاعره تجاه الحجاج في تلك اللحظة، في يومياته فقال: «من المنطق أن يتوقف الحجاج عن تقديم التماسات فردية [للأمير] وعليهم أن يسعوا إلى الاحتجاج والإضراب ... من الصعب على المصريين، على ما يبدو، الاتفاق على أمرٍ واحد على الرغم من أن الاختلاف يضرّ بهم».

وعلى الرغم من الفوضى الأولية المصاحبة لتنظيم هذا الجمع الغفير من الحجاج، تمكنت القافلة من الاستعداد للرحيل بسرعة فائقة. «لقد خشي الحجاج أن يتخلفوا عن القافلة فلقد كان

ذلك مصدر قلق شديد، فحرصوا على ألا يحدث ذلك، مهما كان الثمن».

أما السعودي فواجه مشاكل خاصة به، تتعلق بالعبدين اللذين استأجرهما لحمل أمتعته إلى المخيم وتحميلها على ظهور الجمال. وتتلخص المشكلة في طلب عطية، وهو من وفّر العبدين للسعودي، لسلفة تبلغ ستة جنيهات مصرية. رفض السعودي وأخبر عطية أنه لا يملك هذا المبلغ. وعد السعودي، عوضاً عن ذلك، أن يقدم هذه السلفة في المدينة، إن كان ذلك ضرورياً. وعندما لم يظهر العبدان المعنيان، أدرك السعودي أن السلفة لم تكن إلا طلباً مبطناً للحصول على إكرامية أو بخشيش (Bakhsheesh).

بحث السعودي عن أحد العبيد الذي تجاهله متعمداً، وكان يُحمّل أمتعة الأمير. ثم بحث السعودي عن عطية الذي حاول تجنّبه أيضاً مما أثار غضبه: «لقد كنت سخياً جداً مع هذا الرجل عند جبل عرفة والمزدلفة ومِنى ومكة... والآن يرغب عن مساعدتي لرفضي إعطاءه الستة جنيهات!».

ازداد الأمر سوءاً عندما أرسل عطية ابنه خليل لتقديم يد العون للسعودي، فلقد أدرك أن الأخير بدأ يكرهه. وجد السعودي أن هذا الفتى لا يُطاق فطلب أن يتم استبداله. أغضب هذا الأمر عطية، وأدت التماسات متكررة إلى الأمير إلى إثارة ضمان مُبهم باستبدال خليل. استنتج السعودي أن «الشكوى إلى الأمير مضيعة للوقت ولاسيما إن كانت شكوى فردية».

كان أفضل تصرف، على ما يبدو، نسيان ما حدث وعدّه نوعاً من المزاح. ولذلك صمت السعودي عندما اكتشف أن عطية قام بجلب ستة من الجمال بدل العشرة التي وعد بتوفيرها. ولم يتدخل السعودي عندما قام خليل بتحميل الأمتعة على الرغم من اقتناعه أنه لم يكن كفوءاً لهذا العمل، بل كان مخادعاً.

مرّت الحملة، عند مغادرتها مكة، ببستان عون (The Garden of ʿAun)، الذي ظلّ مخصصاً وقتاً طويلاً للمحمل المصري حيث عسكر الحجاج المصريون، حتى تم الاستيلاء عليه



توقفت القافلة خلال رحلة الحج الثانية التي قام بها السعودي بجوار بئر عسفان في اليوم الثالث من مغادرتها لمكة. اشتهرت البئر بعذوبة مائها ونقائها. نرى في الصورة أمير الحج يتلو بعض آيات القرآن الكريم في حين يقوم أحد الحراس بحمايته من أشعة الشمس الحارقة بحمل مظله فوق رأسه.

إبان حكم الطاغية الراحل عون الرفيق (Aun Al–Rafiq') عندما كان شريف مكة. أهدر عون الكثير من المال لإنشاء حديقة غنّاء وقد ضاعت هباء، في نهاية الأمر، بسبب الشجارات التي نشبت بين ورثته. خلص السعودي إلى القول: «يُفضّل تحويل هذه الحديقة المهجورة إلى مكان عام يستفيد منه سكان مكة».

اليوم الأول. الأول من شباط (من مكة إلى وادي فاطمة).

بعيداً عن المدينة، امتلأ الدرب بالتلال الشاقة الوعرة. وسرعان ما تخلى خليل عن السعودي فبات الأخير دون جمّال، وكان ذلك قبل أن يصبح الشاكداف الملحق بجمل السعودي غير ثابت، بقليل. توسل السعودي للحصول على المساعدة ولكن ما من مجيب. عرض السعودي توفير الطعام والشراب لمن كان على استعداد لتقديم المساعدة، ولكن دون جدوى. وبمرور الأيام، بدأت

حاجيات الحجاج التي لم تثبت على الجمال بإحكام، بالسقوط عن ظهور الجمال، ولم تنج أمتعة الأمير أيضاً. لاحظ السعودي أن «ما من أحد اهتم بالتقاط الأمتعة إلا بعد أن تجاوزتها القافلة». نظرياً، كان الجنود الذين يحرسون ظهر القافلة مسؤولين عن أولئك الذين تخلفوا عنها، وعن جمع كل ما وقع من أمتعة الحجاج. تساءل السعودي عما إذا كان هؤلاء الجنود يؤدون واجبهم أم لا.

سمع السعودي في مرحلة ما صوت ارتطام. لقد سقطت إحدى صناديقه التي تحتوي على الأجزاء الزجاجية الخاصة بآلة التصوير وحاجيات أخرى ثانوية. قلق السعودي كثيراً فقد خشي انكسار أدواته، ولكنّ حركة القافلة السريعة لم تسمح له بالتحقق من ذلك.

وبينما كان جالساً داخل شاكدافه، رغب السعودي في كتابة بعض الملاحظات ولكن حرارة الجو استنزفت طاقته، بالإضافة إلى قلقه على والدته التي لم تتعاف بَعْد من مرضها. اكتشف السعودي أيضاً أن طبّاخه ومساعده كانا يتعاطيان الحشيش مما زاد من تشوّش السعودي وارتباكه.

استنتج السعودي، بعد مرور سبع ساعات، أن القافلة تقترب من مصدر مياه ما، لما رآه من جموع وطيور جارحة تحوم في السماء. وسرعان ما وصلت القافلة إلى وادي فاطمة الذي يقع بين بساتين النخيل الغنّاء ومحاصيل أخرى نمت في تربة مرويّة جيداً. قام الحجاج بجمع مياه الشرب في قِرَبهم من البئر الموجودة هناك، وقرروا نصب خيامهم بالجوار وعندها رتّب السعودي لحصول والدته على دواء من الطبيب حسن أفندي رفعت لمعالجة صعوبة التنفس والصداع اللذين عانت منهما. قام الطبيب بإعطاء والدة السعودي بعض الأقراص الطبية ونقيعاً، كما قام بدهن رِجْلها بالخردل. ونتيجةً لذلك، تحسنت حالتها بحلول الليل على الرغم من أنها بقيت ضعيفةً نوعاً ما.

اليوم الثاني. الثاني من شباط (من وادي فاطمة إلى المحسنية (Mahsaniya)).

ارتفعت معنويات السعودي بتحسن حالة والدته، وانفض المخيم بعد الظهيرة وكان السعودي يفكر ببعض النصائح لحجاج المستقبل، مثل: «احذروا أن يرتطم غطاء الشاكداف

بالشجيرات ذات الأشواك ولا بدّ أن يكون هذا الغطاء واقياً من مياه الأمطار».

لاحظ السعودي بعد مرور ساعة أن «الهواء النقي بات نتناً بفعل رائحة الجمال التي نفقت فخلّفها الحجاج وراءهم ... أما البدو، فهم لا يتركون جمالهم النافقة هكذا». وبحلول منتصف الظهيرة، دخلت القافلة إلى أرض رحبة صالحة للزراعة انتشرت فيها بعض الأشجار ذات الأنواع المختلفة. أصابت الحيرة السعودي لاكتشافه أن ما من أحد يزرع هذه الأرض ذات التربة الخصبة. ثم «أصبحت [الأرض] مستوية للغاية، وكأن مدحلة بخارية قد سوّتها».

توقفت القافلة عند سماع صوت عيار ناري للحصول على قسط من الرّاحة بعد مضي خمس ساعات من السفر المتواصل. وعندما استأنفت القافلة المسير، اتسع مدى الأرض المنبسطة غير أن التربة أصبحت أكثر فقراً، في حين كانت الأشجار العالية والمنخفضة، على حدّ سواء، وفيرة. وقد وصلت القافلة إلى المحسنية الساعة الحادية عشرة ليلاً تقريباً.

اليوم الثالث. الثالث من شباط (من المحسنية إلى عسفان Asfan').

أعلن صوت عيار ناري في وقت مبكر بعد ظهر اليوم التالي استئناف القافلة لرحلتها من جديد. «بدت التربة خصبة وحوّطت ربوة صغيرة من مزيج الطين والرمل، قواعد الأشجار، وذلك لحمايتها. تحولت الأرض، في نهاية المطاف، إلى أرض صخرية انتشرت فيها كتل من صخور بركانية ونبات الحَمْد (Al-Hamd) أو ما يُعرف بنبات خانق الكلب[1] (Dogbane). غيّرت القافلة اتجاهها، قُرب نهاية نهار ذلك اليوم، من الشمال إلى الغرب، فوصلت إلى عسفان قبل غروب الشمس. وفي عسفان، تزوّد الحجاج من جديد بمياه الشرب من بئر وصل عمقها إلى اثني عشر متراً، شُيّدت جدرانها باستخدام حجر أسود ويحيط بها ما يُشبه المنصة. تُعرف هذه ببئر التُفلة[2] (Tufla)، واشتهرت بسبب الاعتقاد أن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – قد شرب منها.

---

(1) خانق الكلب: يُطلق عليه أيضا اسم «قاتل الكلب» وهو نبات سام، له عصارة حليبية ذات مذاق لاذع، وأزهار بيضاء أو وردية اللون وجذور مرة المذاق. (المترجم)

(2) يقع بئر تُفلة على بعد 55كم شمال مكة المكرمة و 345 كم جنوب المدينة المنورة بمدينة عسفان، ويُقال إنه كان جافاً، فبصق فيه الرسول فجاش الماء من البئر في العام السابع للهجرة عندما كان في طريقه إلى المدينة وبصحبته 1400 صحابي، بعد إبرامه لصلح الحديبية. (المترجم)





جمّال يرافق أحد الجمال التي حملت أمتعة السعودي ويبدو صندوق خشبي قد ثُبت على جانب الحيوان وبداخله حاجيات السعودي الثمينة. لقد وقع هذا الصندوق مرات عديدة بفعل السيول العنيفة، وتسبب ذلك بتلف الشرائح الزجاجية الخاصة بالمنظار أو ما يُعرف بالإستريوسكوب[1].

(1) الإستريوسكوب: أداة بصرية تُبدي الصور للعين مجسّمة. (المترجم)

اليوم الرابع. الرابع من شباط (من عسفان إلى خليص[1] (Khalis)).

عندما غادرت القافلة عسفان، تحولت الطريق إلى ممر ضيق يمتد بين جبال شاهقة. عرقلت بعض الصخور الضخمة مسيرة القافلة، على فترات غير منتظمة. شعر السعودي بالأسف وكتب قائلاً: «على الجنود، بالتأكيد، أن يكونوا فاعلين في إزالة الصخور عن الطريق ... أتمنى ألا يتم تغيير هؤلاء الجنود المرافقين للمحمل كل عام، فالأمر ينتهي دوماً بجنود يفتقرون إلى الخبرة اللازمة لتنظيم القافلة». لاحظ السعودي أن اسم المنطقة (عسفان) مشتق من «العسف» (al-'asf) وهي كلمة تعني «طريقاً وعرة، لا يمكن عبورها»، مما يُلائم بالفعل طبيعة هذه المنطقة.

وبينما حدّق السعودي عالياً ليرى هذه الجبال المحيطة به، فكّر بالطريقة التي تكونت فيها هذه الصخور البركانية، فتخيل انفجاراً بركانياً عظيماً نتجت عنه نيران ولفظ [في الوقت ذاته] صخوراً ورماداً؛ «الشيء الوحيد المفقود هو اللهب».

وعندما دخلت القافلة الشِّعب الضيق، أصبحت الحركة أسهل مما كانت عليه. تفرقت القافلة واضطر السعودي إلى الانتظار قرابة ساعتين ليتمكن المحمل ومرافقوه من اللحاق به، وفي حين كان السعودي ينتظر، راقب الحجاج الآخرين والجمّالين ومساعديهم المرافقين لهم. ولقد سطّر ملاحظاته في يومياته فكتب معترضاً: «إن الحشيش يؤثر على جزءٍ رئيس من أولئك الذين يخدمون الحجاج وعلى بعض الحجاج أيضاً». حتى إن السعودي رأى امرأة، من بين الحجاج، تتصرف بغرابة وتهين الأمير، ففسّر ذلك بتعاطيها، ربّما، للحشيش.

وكلما ابتعدت القافلة عن الجبال، تقلصت حدودها الوعرة، و«أصبح المشهد فارغاً إلى درجة أن الأفق بدا مجرّد خط فاصل بين السماء والأرض». أما الأرض فكانت متشققة بفعل مياه الأمطار التي هطلت مؤخراً. رأى السعودي في بقعة ما، تربة تميل إلى الصّفرة فاعتقد أنها قد تكون ملائمة لزراعة محاصيل قادرة على تحمل ظروف مناخية قاسية.

---

(1) محافظة سعودية تابعة لمنطقة مكة المكرمة وتقع على بعد 90كم من جدة. (المترجم)

وفي المساء، اضطرت القافلة إلى عبور سيلَيْن خطيرين جرفا معهما صخور الجلمود[1]، فانزلقت الجمال ووقعت على الأرض. ثم حطت الرحال عند خليص، قبل شروق الشمس، حيث توجد قرية صغيرة وسوق. نُصبت الخيام فوق تلة تبعد عن القرية مسافة قليلة، ثم توجه الحجاج إلى القرية لشراء التمور والدجاج والقرع، بالإضافة إلى العلف لإطعام جمالهم، وتزود الحجاج بماء الشرب من بئر كانت مياهها أكثر ملوحة من مياه تُلفة.

اليوم الخامس. الخامس من شباط.

رحلة استمرت تسع ساعات قطعت القافلة خلالها أراضي رملية قاحلة. ترجلّ السعودي عن ظهر جمله، في نقطة ما من الرحلة، وفضّل أن يسير على قدميه مدة ساعتين. هبت عاصفة رملية قرب نهاية اليوم مما أعاق نصب الخيام. أمر الأمير الحملة بالتخييم بجوار سوق القضيمة (Qadema) مما تطلب نصب الخيام بجوار بعضها [لضيق المكان]، مما أثار جدلاً بين الحجاج. أما السعودي، فسرعان ما تلاشت آماله المتفائلة بخصوص تحسن حالة والدته التي تدهورت صحتها من جديد.

اليوم السادس. السادس من فبراير (من القضيمة إلى رابغ (Rabigh)).

أعلن منادي القافلة أن الأمير أمر باستئناف الرحلة سريعاً لأن الوصول إلى رابغ قد يستغرق ست عشرة ساعة. شعر السعودي أنه يفضل تجزئة مدى هذه الرحلة المتواصلة إلى مرحلتين مراعاة لظروف المرضى والضعفاء من الحجاج. ولذلك، عندما وصلت الحملة إلى قرية بها العديد من الآبار وتُعرف بسعبر (Saʻbar)، اعتقد السعودي أنها يمكن أن تكون البقعة المثالية للحصول على راحة قصيرة.

على أي حال، سلكت القافلة الآن «طريقاً طبيعياً رائعاً» خلال هذا اليوم الطويل. وبحلول الظلام، لاحظ السعودي وجود رواسب بحرية وبقايا أصداف في التربة وهو دليل على وجود خلاصة ملحية؛ «لقد تركت أمطار السيول شقوقاً عظيمة في التربة الحمراء مما دلّ على وجود

(1) الجلمود: صخور ضخمة دائرية الشكل. (المترجم)

أكسيد الحديد». ولأول مرة في حياته، رأى السعودي سراب الصحراء.

وصلت القافلة إلى خيبر بحلول الظلام وتحت ضوء القمر الخافت، وتحركت ببطء إذ استخدم الحجاج مشاعل عكست ضوءاً غير كاف على الأرض الصخرية. كتب السعودي واصفاً هذا اليوم الشاق فقال: «لقد كان يوماً طويلاً مُنهكاً وزادت الرياح القوية الأمر سوءاً إذ إنها جعلت استقرار الحجاج داخل خيامهم أمراً صعباً». أما الخدم والجمالون فكان لا بد أن يقدموا يد العون لتأمين خيام الحجاج والعناية بالدواب، لكنهم كانوا تحت تأثير الحشيش القوي فلم يكونوا نافعين مطلقاً؛ «إذا ابتلى الله شخصاً بمصيبة الحشيش، يتشوش عقله وحواسه ويبدأ بالهلوسة إلى درجة أن الجمل سيبدو له ثعلباً، والخيمة جبلاً... والكلب دباً».

لقد كان الطباخ، على وجه خاص، مدمناً على تعاطي الحشيش وتجاهل، بتعنت واضح، نصائح السعودي الذي أخبره أن «مُدمني الحشيش يتحولون إلى أشخاص أغبياء، بليدين، كسولين يتصرفون بجبن ويثرثرون بلا انقطاع».

شعر السعودي في تلك الليلة، أنه بحاجة إلى التحدث مع رفاقه الحجاج، على الرغم من شعوره بالإنهاك الشديد، ولاسيما بعد أن قضوا ساعات طويلة على ظهور الجمال دون رفقة. إلاّ أن جميع من كان حوله، غطّ في نوم عميق باستثناء بعض الجمّالين الذين اعتقد السعودي أنه من غير اللائق دعوتهم لمشاركته الحديث، ولذلك أعدّ لنفسه كوباً من الشاي وظلّ مستيقظاً معظم الليل ولم يحظ سوى بساعة من الراحة قُرب الفجر.

اليوم السابع. السابع من شباط (رابغ).

تسلل بعض اللصوص إلى المخيم ليلاً فسرقوا بعض ممتلكات خالد أفندي، بالإضافة إلى البقسمات (Baksamat) أو البسكويت المجفف الذي كان يوزع على فقراء الحجاج في كل من مكة والمدينة. لم تفاجئ الحادثة السعودي فلقد كانت السرقة منتشرة في هذه المنطقة. «اشتهر لصوص رابغ بقدرتهم على إرباك الحجاج القابعين في مخيماتهم، إذ يمشي هؤلاء اللصوص مثل



إبراهيم أفندي أحمد حمّادي خربوطي (Ibrahim Effendi Ahmad Hamadi)، أمين المكتبة العامة في المدينة، الذي تعرّف عليه السعودي خلال رحلة الحج الأولى. قام إبراهيم أفندي بتزويد السعودي، خلال رحلة الحج الثانية، بالملابس التي يرتديها أهل المدينة المنورة، فتمكن السعودي بذلك من تجنب القيود التي فرضها أهل المدينة على حركة الحجاج داخل المدينة.

الكلاب، فيقوم أحدهم بالإمساك بقدمي اللص الآخر الذي يزحف على يديه، فتشبه حركتهما معاً حركة حيوان يمشي على أربع».

استيقظ السعودي فرأى «أرضاً فسيحة تغطيها أشجار النخيل وتمتد شمالاً». لحقت القافلة السورية بالقافلة المصرية واتخذت من هذه الأرض مركزاً لمخيمها كي تتمتع باستراحة وافرة. «تعدّ رابغ المعلم الرئيس الذي يرتدي عنده الحجاج المصريون، سواء أكانوا يسافرون براً أو بحراً، ملابس الإحرام»، كما وصفها السعودي في يومياته، على الرغم من أن السعودي ارتدى ملابس الإحرام عندما سافرا مبحراً إلى جدة، في نقطة مبكرة عند ذي الحليفة (Dhu-l-Khalifa). وبينما أثارت الإيحاءات الدينية المرتبطة برابغ إعجاب السعودي، كانت المدينة مخيبة للآمال لافتقارها لمعالم هندسة واضحة. ولم تكن القلعة المميّزة للمدينة، التي استقبل فيها الأمير ضيوفه بحالٍ أفضل، بل كانت يُرثى لها.



بوابة العنبرية (Al-'Anbariya) المؤدية إلى المدينة، التي يمر عبرها الحجاج القادمون من مكة وميناء ينبع (Yanbo). أما الحجارة المقصوصة التي تبدو في مقدمة الصورة، فلربما كان سيتم استخدامها لتشييد سكة الحجاز الحديدية، التي كان العمل عليها على وشك الانتهاء. افتُتح خط محطة قطار الحجاز والممتد من دمشق إلى المدينة المنورة، في أيلول، عام ١٩٠٨.

ابتاع السعودي بطيخة رائعة من السوق، استمتع بتناولها مع والدته، «فأطفأت هذه الفاكهة عطشها». اشترى السعودي أيضاً بعض اللحم الطازج، فلقد أتلف الخدم بتصرفاتهم الغبية كمية كبيرة من اللحم الذي جلبوه معهم، في بداية الرحلة. طُهي اللحم بحذر شديد خوفاً من انتقال



جنود أتراك يرحبون
بوصول الفريق الرسمي
للحملة المصرية إلى
بوابة العنبرية.



باب العنبرية فى ايالة المدينة المنورة رسم محمد على سعودى بمصر



عدوى الكوليرا، ولكن، لسوء الحظ، فسدت الوليمة بفعل التراب المنتشر في كل مكان.

اقتلعت ريح عاتية خيمة السعودي في تلك الليلة. وبينما ذهب جميع الخدم إلى السوق للترفيه عن أنفسهم، اضطر السعودي إلى تثبيت خيمته وحده. على أي حال، مكنت هذه الاستراحة الطويلة في رابغ، السعودي من الاستحمام جيداً، إذ لم يتمكن من فعل ذلك طوال الأسبوع. «لا يُعقل، في موطني، ألا يستحم المرء، يومياً حتى في فصل الشتاء القارس ... فأنا لا أستطيع العمل دون أن أستحم كل يوم».

اليوم الثامن. الثامن من شباط. (من رابغ إلى بلدة مستورة[1] (Mastura)).

ابتعدت القافلة عن خيبر مسافة طويلة تعادل بستان نخيل، وعندها تذكر خليل أنه ترك بعيره مربوطاً هناك. وعندما عاد لاسترجاع بعيره، وجد خليل أن بعض الرّزم التي كانت على ظهور الجمال قد سقطت عند مغادرة القافلة للمخيم. ولذلك، اضطر خليل إلى العودة مرة أخرى لجمعها. أثار ذلك غضب السعودي الذي رأى أن خليلاً جمّال غير كفوء، وتعكّر مزاجه عندما تعثّر جمله وكاد يسقط من الشاكداف.

امتدت الطريق صعوداً وهبوطاً عبر التلال حتى وصلت القافلة إلى نقطة تمكّن السعودي عندها من لمح البحر، لأول مرة، وقد بدا مُرحِّباً. هنا، تبين أن بعض الحجاج الذين سبقوا القافلة المصرية قاموا بإزالة الصخور والحجارة لتسهيل حركة قافلتهم. توقفت القافلة عند الغسق نصف ساعة للحصول على قسط من الراحة قبل التحرك باتجاه ريح الشمال الباردة، ثم وصلت القافلة المصرية إلى بلدة مستورة في جنح الظلام، مما سبّب دوماً الكثير من المشاكل لقافلات الحجاج. وتعدّ بلدة مستورة محطة فسيحة، تتوقف عندها القوافل، حيث حفر البدو آباراً وشيدوا خزانات للاحتفاظ بمياه الأمطار.

اليوم التاسع، التاسع من شباط. (من مستورة إلى بئر الشيخ (Al-Sheikh)).

انفض المخيم قبل بزوغ شمس النهار وانطلقت القافلة من جديد وتمكن السعودي من

صورة السعودي وقد ارتدى ملابس أهل المدينة المنورة، مما يعني أنه لم يخضع للقيود التي فرضها سكان المدينة على حركة الحجاج خشية انتشار مرض الكوليرا.

(1) مستورة: بلدة ساحلية غير بعيدة عن البحر الأحمر، وتبعد عن رابغ أربعين كيلومتراً شمالاً. (المترجم)

مراقبة شروق الشمس أثناء ذلك. وجه السعودي جَمَله نحو الشرق، باتجاه مكة حتى يتمكن من الصلاة، وكتب قائلاً: «كانت تلك هي المرة الأولى التي أؤدي فيها الصلاة على ظهر بهيمة».

تحركت القافلة باتجاه ريح الشمال الباردة، كما فعلت في اليوم السابق. قام الجمّالون بحماية أنفسهم من البرد عبر ربط خصورهم بأوشحة حمراء اللون جعلوا عقدتها عند ظهورهم، في حين تدلت أطرافها على نحو غير محكم. كتب السعودي واصفاً إياهم في يومياته: «بدا هؤلاء الجمّالون مثل قرود وقد ربطوا هذه الأوشحة الحمراء حول خصورهم».

كانت رحلة أخرى مرهقة، استمرت طوال الليل حتى وصلت القافلة إلى محطة جديدة بمساعدة «ضوء القمر الذي كان بدراً، في حين انخفضت درجة الحرارة بحدّة».

اليوم العاشر. العاشر من شباط. (من بئر الشيخ إلى بئر الحساني (Hasani)).

نالت القافلة قسطاً من الراحة حتى منتصف النهار، ثم انطلقت في رحلة قصيرة عبر طريق يخترق الجبال حتى وصلت إلى نقطة توقف جديدة، ألا وهي بئر الحساني. كانت الخدمات في هذه المحطة بدائية للغاية، ولكن نوعية مياه البئر لم تشغل تفكير السعودي كثيراً، وذلك لانزعاجه من تصرفات خليل الذي أصرّ على زيارة زوجته خليلة (Khalila)، التي تقطن في قرية مجاورة.

استطاع السعودي أن يسمع خليلاً يغني أغنية شعبية بنبرة رتيبة فقال: «مضى عامان دون رؤية حبيبتي. إن هذا الجمل فقط، هو ما يجعل سيدي يُبقيني في خدمته ويدفع لي قوت يومي...»

وعد خليل أن يرسل للسعودي جمّالاً آخر ليحلّ مكانه، ولكن السعودي ظن أن نوايا الرجل ووعوده لا يمكن الوثوق بها.

اليوم الحادي عشر. الحادي عشر من شباط. (من بئر الحساني إلى خليص).

وفي الصباح، ظهر عبد طويل القامة، قوي البنية، يرتدي عمامة سميكة تحميه من البرد، وكان جاهزاً لتحميل الجمال. راقب خليل عملية التحميل تلك دون أن يمدّ يد العون ثم انطلق على ظهر فرسه نحو قريته لزيارة خليلة المزعومة. تنهّد السعودي معبراً عن شعوره بالراحة

وقال: «الحمد لله أنه ذهب في حال سبيله!».

وبينما تحركت القافلة شرقاً فتوغلت في الأجزاء الداخلية للبلاد عبر ممر جبلي ضيق، شعر السعودي بالامتنان لتخلصه من خليل؛ ذلك الجمّال الذي لا يمكن الاعتماد عليه. وفي مناطق معينة داخل الممر الجبلي، فصلت مسافة لا تتجاوز مائة متر واجهتي المنحدرين الصخريين. دهش السعودي لرؤية كيف تمكن البدو من استخدام الحجارة لفصل المنطقة الواقعة بين الطريق والجدار الجبلي حيث قاموا بزراعة محاصيل معينة. وقد بلغ ارتفاع الجدار الصّخري الذي شيدوه متراً واحداً، وشكل قناة لإعادة توجيه مياه الأمطار المنحدرة من الجبال. تساءل السعودي عن السبب الذي دفع البدو إلى زراعة هذه البقعة حيث التربة فقيرة، في حين مرّ السعودي خلال رحلته بأراضٍ كثيرة صالحة للزراعة. فكّر السعودي: «يستقر الإنسان عادة حيث يرزقه الله بأسباب العيش».

سرعان ما حصل السعودي على تفسير لاهتمام أفراد القبائل بالزراعة. إذ تسيطر القبائل على الوادي الضيق الذي يمرّ عبره كل الحجاج المتوجهين إلى المدينة، مما يمنحهم فرصة لا تعوّض لفرض رسوم عالية عليهم مقابل عبورهم هذه المنطقة الخاضعة لسيطرتهم.

سمع السعودي صوت عيار ناري الساعة الخامسة تقريباً. توقفت القافلة للحصول على راحة قصيرة ثم تابعت المسير، وانطلقت المزيد من العيارات النارية وتعالت أنغام الفرقة الموسيقية المرافقة للمحمل، وكانت إشارةً مفهومةً تدل على حدوث هجوم من جانب البدو، أما الغرض من العزف المرتفع النبرة فكان طمأنة الحجاج. وعندها أمر ضابط سريةٍ من الجنود بإطلاق النار، وسرعان ما أوقف البدو إطلاق النار وبعد مضي نصف ساعة أعلن الضابط أن الطريق أصبح آمناً وبإمكان القافلة أن تتابع المسير.

أصبح الممر الجبلي أكثر ضيقاً، فلقد تجاوز الثلاثين متراً بقليل. «ارتفعت واجهة الجبال، على جانبي الممر، بصورة عمودية تقريباً فاضطر المسافرون إلى التحرك بحذرٍ شديد لتجنب

الارتطام بالصخور ومن ثمّ التّسبب بسقوطها»، كما انقسم الحجاج إلى مجموعتين متتابعتين عبر ممر يرتفع تارة وينخفض أخرى. اضطرت المجموعتان إلى السير فوق الصخور مدة ثلاث ساعات، فكانت عملية شاقةً وخطرةً، وقد زادت الحرارة الخانقة من صعوبتها. كما اضطر الحجاج كذلك إلى توخي الحذر الشديد خشية انزلاق الجمال؛ «بدت قافلة الجمال مثل جرذان تعدو فوق هذه الصخور».

وعندما انتهت القافلة من عبور الوادي الضيق، تجمعت من جديد عند أرض رملية مستوية، لكنها سرعان ما تعرضت لهجوم مجموعة من البدو، مرة أخرى، وقد لوّحوا بأسلحتهم مهدّدين الحجاج. أطلق البدو النار وأصدروا أصواتاً مخيفةً لترويع الحجاج، ونتج عن إطلاق وابل من الطلقات تلا ذلك، مقتل إحدى الحاجات، ثم أصابت طلقة أخرى أحد الخراف، فاضطر الجنود إلى قتلها بالرصاص. رأى الأمير أن من الحكمة التفاوض مع البدو فأرسل رسله إليهم. وبعد مفاوضات طويلة، تمت رشوة البدو بمبلغ ألف و مائة ريال دُفعت من خزينة المحمل. أما البدو، فينتمون إلى قبيلة بني عمرو (Bani Amru) وكحلة (Kahla) وصُبح (Subh) والمحاميد (Al-Mahamid).

وصلت القافلة إلى المحطة التالية، خليص (Khalis)، بحلول منتصف الليل. كان سكان خليص غير ودودين إذ تصرفوا بعدائية شديدة حين هاجموا العديد من الحجاج الذين حاولوا الحصول على بعض مياه البئر.

وهنا، علم السعودي أن الأمير عليل، لكنه لم يصدق ذلك. «لقد رأيت الرجل يمتطي فرسه كل يوم، يسأل عن أحوال الحجاج ويؤدي واجبه على أكمل وجه ... بدا لي مفعماً بالحيوية والنشاط والقدرة على التحمل، متمتعاً ببنية جسدية قوية». زار السعودي الأمير في خيمة المشفى فوجده يخضع للعلاج. على أي حال، لم يتمكن السعودي من كبح شعوره بالرثاء لحال الأمير الذي «أحاط به المنافقون دوماً، ممن سعوا وراء مصلحتهم الخاصة، لقد كانوا

مثل ذباب يحوم فوق قطعة حلوى».

لم يتمكن السعودي من النوم خلال الساعات المتبقية من الليل لأن الجمّالين تركوا الجمال تتجول بين الخيام فتشابكت قوائمها مع حبال الخيام.

قام أحد الضباط في اليوم التالي بتحذير السعودي، من خطر قبيلة حميدة (Ahamida) البدوية التي قد تهاجمهم خلال مسيرتهم القادمة كما توقع السعودي تماماً.

اليوم الثاني عشر. الثاني عشر من شباط (من خليص إلى الدّرويش).

نال الحجاج قسطاً من الراحة خلال النهار. وأمر الأمير بتشكيل مخيم وأن تتجمع القافلة معاً لحمايتها على نحو أفضل، من البدو. ثم أعلنت العيارات النارية التي أطلقها الجنود المرافقون للحملة بدء الرحلة من جديد في التاسعة مساء. أسرع السعودي ليؤمّن موقعه، فبالإضافة إلى ضوء القمر، حمل الحجاج مصابيح زيتية تُضاء بالكيروسين، وعلى الرغم من ذلك، كانت الرؤية صعبة. سرعان ما تجمعت القافلة استعداداً للانطلاق، ووسط العتمة لامس شاكداف السعودي الأشواك، فكشطت يده وسال دمه. خيّم الظلام «فظهرت النجوم التي سطعت مثل زهور وسط السماء السوداء». حاول السعودي جاهداً أن يظل مستيقظاً، فغيّر مكانه داخل الشاكداف وشرب قليلاً من الشاي من قارورته وابتلع مسكنات للألم.

وعندما وصلت القافلة إلى ممر جبلي ضيق، تحرك الحجاج بحذرٍ شديد. طلبت قبيلة حميدة، في المرات السابقة، رشوة للسماح للحجاج بالمرور بسلام، ولم تكن هذه المرة استثناء، فقد علم السعودي أن الأمير اضطر أن يدفع مائة وخمسين جنيهاً مصرياً لضمان سلامة عبور القافلة.

توقفت القافلة في الصباح الباكر عند بئر الراحة (Al–Raha). وبينما كان السعودي ينال قسطاً من الراحة في هذا المكان، سمع صوت عيار ناري، «ثم كان بالإمكان رؤية أحد الضباط على ظهر فرسه، يعدو على طول القافلة وهو يصرخ قائلاً «احذروا، جميعاً!» وبعد دقيقتين تبعه الأمير والحارس المرافق له، محاولين تحديد الاتجاه الذي انطلقت منه العيارات النارية».

لقد أطلق البدو، من قبيلة حميدة ذاتها، النار على القافلة، للحصول على المزيد من المال. فبعث الأمير برسله إلى زعيم القبيلة، وبعد التفاوض معه اقتنع الأخير بأن القافلة قد دفعت مالاً كافياً.

علم السعودي فيما بعد أن شريف المدينة قد عيّن الشريف علي بن حيازة (Ali ibn Hayaza') ليكون وسيطاً بين قبائل البدو والأمير، إلا أن هذا الوسيط طلب نسبةً من المال مقابل خدماته. أثبتت هذه الأحداث للسعودي أن القبائل يتم تحريضها لتُبدي عدائيتها تجاه الحجاج مظهرة معارضتها لمشروع سكة الحجاز الحديدية.

تحدث السعودي مع أحد أفراد القبائل الذي أخبره أن «محطة القطار هذه لم تكن فكرة السلطان لكنها فكرة «الدولة العثمانية»».

وعندها سأله السعودي: «ما الفرق إذن بين الدولة والسلطان؟» أجاب الرجل: «يختلف السلطان عن الدولة والدولة عن السلطان».

استمتع السعودي كثيراً بهذا المفهوم الغريب للإمبراطورية العثمانية.

وعندما وصلت القافلة، في نهاية الأمر، إلى آبار درويش تمكن الحجاج من دفن المرأة المسكينة التي قُتلت برصاص البدو في اليوم السابق.

اليوم الثالث عشر: (من آبار الدرويش إلى ذو خليفة/المدينة المنورة).

انطلقت القافلة منتصف النهار، وتعرّضت لنيران البدو التي انطلقت من الجبال، مجدداً. ردّ الجنود بالمثل فأفرغوا مخزونهم من الذخيرة حين أمطروا البدو بوابل من الرصاص المدوي، دفعة واحدة. لقد تركت ردة فعل الجنود العنيفة الأثر المطلوب ألا وهو إنذار هؤلاء البدو للمرة الأخيرة.

أمِلَ السعودي بعد هذه الحادثة العنيفة أن تسلك القافلة طريق الوجه (Al-Wajh) الآمن بدلاً من الطريق السلطاني[1] (Sultani Road)، الذي كان اختياراً انتحارياً. «إن البدو الذين

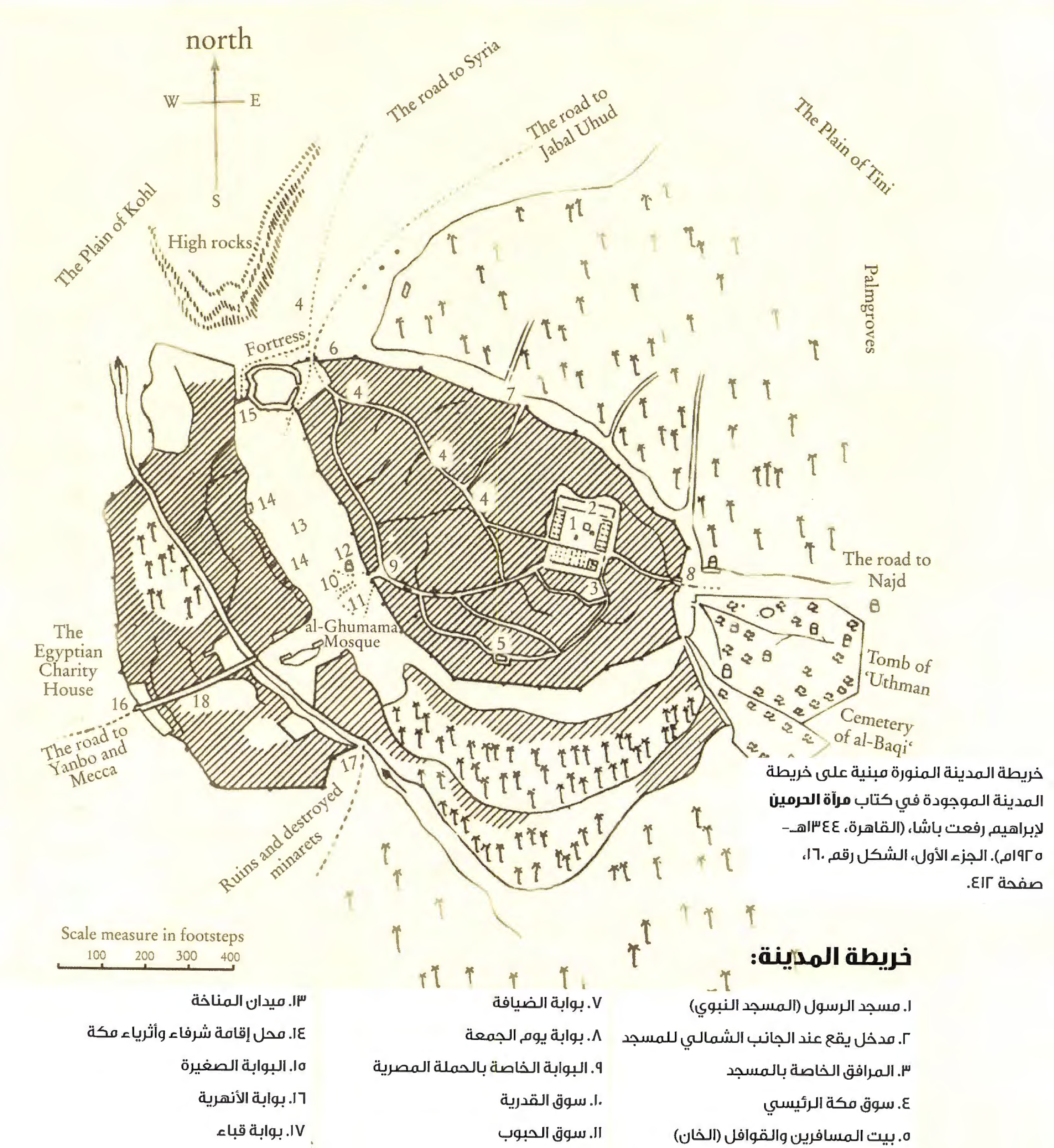
(1) الطريق السلطاني: يتجه هذا الطريق شمالاً ويتفرع عند مستورة. (المترجم)

يهاجمون الحجاج في هذا الطريق كانوا على استعداد للقتل والنّهب بلا خوف؛ إنهم لا يخشون الله أيضاً».

تمكن السعودي عند المغيب من رؤية مآذن المسجد النبوي؛ مسجد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتمكنت القافلة من التوقف للاستراحة خارج المدينة المنورة، وتحديداً عند ذي حليفة. وهنا، التقى السعودي بإبراهيم أفندي أحمد حمادي الخربوطي؛ أمين مكتبة المدينة. سار الاثنان باتجاه المدينة المنوّرة ومرّا ببئر عروة بن الزبير، الذي يقال إن مياهه هي الأنقى بين مياه آبار المدينة المنورة. وعندما اقتربا من بوابة العنبرية، وهي البوابة الجنوبية، رأى السعودي محطة لسكة الحجاز.

مُنع الحجاج من دخول المدينة المنورة كإجراء احترازي وذلك بسبب انتشار داء الكوليرا، فانقسمت القافلة المصرية إلى ثلاث مجموعات، وذلك لعدم توافر مساحة كافية لتخييم القافلة بأكملها في بقعة واحدة. أما المحمل السوري فاضطر إلى التخييم في مكان يبعد نصف ساعة عن المدينة المنورة بدلاً من مكانه المتعارف عليه بجوار المحمل المصري.

وحينما نُصبت خيمة السعودي، كان يشعر بالبرد والإنهاك، ولذلك شعر براحة شديدة لوصوله إلى المدينة. كتب السعودي: «أحمد الله أننا وصلنا إلى المدينة المنورة بأمان بعد كل هذه الحوادث العنيفة».



خريطة المدينة المنورة مبنية على خريطة المدينة الموجودة في كتاب **مرآة الحرمين** لإبراهيم رفعت باشا، (القاهرة، ١٣٤٤هـ-١٩٢٥م). الجزء الأول، الشكل رقم ١٦٠، صفحة ٤١٢.

خريطة المدينة:

١. مسجد الرسول (المسجد النبوي)
٢. مدخل يقع عند الجانب الشمالي للمسجد
٣. المرافق الخاصة بالمسجد
٤. سوق مكة الرئيسي
٥. بيت المسافرين والقوافل (الخان)
٦. البوابة الخاصة بالحملة السورية
٧. بوابة الضيافة
٨. بوابة يوم الجمعة
٩. البوابة الخاصة بالحملة المصرية
١٠. سوق القدرية
١١. سوق الحبوب
١٢. سبيل (مشرب عام)
١٣. ميدان المناخة
١٤. محل إقامة شرفاء وأثرياء مكة
١٥. البوابة الصغيرة
١٦. بوابة الأنهرية
١٧. بوابة قباء
١٨. شارع الأنهرية

الفصل الثامن

إقامة طويلة في المدينة

كانت زيارة إبراهيم الخربوطي للسعودي في أول صباحٍ له في المدينة المنورة. أحضر الخربوطي «ملابس جعلتني أبدو مثل سكان المدينة المنورة»، وقد أكد الخربوطي لصديقه أن هذه الملابس ستمكّنه من تجنب القيود المفروضة على حركة الحجاج داخل أسوار المدينة المسوّرة وخارجها. وبسبب هذه القيود التي فُرضت داخل المدينة، أقام التجار أكشاكاً خارج أسوار المدينة حيث باعوا معظم بضاعتهم. اعتقد السعودي أن الموقف كله يتعارض تماماً مع جهود السلطات الرسمية لمنع انتشار الكوليرا.

كان هدف السعودي الرئيس، الدخول إلى المسجد النبوي وأداء الصلاة أمام ضريح الرسول – صلى الله عليه وسلم. وعندما دخل السعودي إلى المسجد، استغرق في صلاته بخشوعٍ تام وحمد الله على ما أنعم عليه من فهمٍ للدين والقرآن الكريم من خلال تعاليم الشيخ محمد عبده الراحل. لقد كان لهذه التجربة أهمية روحية أعظم بكثير من تجربته السابقة، لأن الشيخ محمد عبده فارق الحياة، هذه المرة، فأحضر السعودي معه بعض كتاباته، كما دعا السعودي لوالديه بالرحمة ولكل من أوصاه بالدعاء عند ضريح الرسول.

اكتظ المسجد النبوي بحجاج المحملَيْن المصري والسوري ومن تبعهم من المتفرجين الفضوليين. وُضع المحمل المصري بجوار المنبر. وبينما راقب السعودي هذا الحشد المتدافع، تساءل عن فاعلية تعليمات الحجر الصحي الصارمة لمنع انتشار العدوى في الوقت الذي يتمكن فيه كل من ينتظر خارج أسوار المدينة من دخول المدينة والاحتكاك بسكانها من مسافة قريبة للغاية.

رأى السعودي حاجاً من شمال إفريقيا، أصابه الذعر عندما لاحظ أن كنّاسي المسجد النبوي يشعلون مصابيح زيتية، فصرخ قائلاً: «لا يجب استخدام الكيروسين عند ضريح الرسول وحيث توجد روحه!»

قام حُراس الحرم بالقبض على الحاج الإفريقي ذي الحظ العاثر وعلم السعودي، فيما بعد، أن الرجل ضرب بقسوة حتى الموت. كانت جريمته الوحيدة أنه أساء فهم طبيعة الإضاءة الحديثة التي استخدمتها السلطات في أكثر الأماكن قداسة.

وحين تذكر السعودي ما حدث للحاج الإفريقي، تصرف بحذر ويقظة شديدين، لذلك تخفى بملابس كنّاسي الحرم، عندما زار ضريح الرسول فيما بعد، مما مكّنه من إخفاء آلة التصوير الخاصة به، والتقاط بعض الصور.

حرص السعودي على ارتداء ملابس سكان المدينة كل يوم، وقد منحه هذا التنكر حرية أكبر للتحرك كيفما شاء داخل المدينة، مقارنة برفاقه الآخرين من الحجاج. سُرّ السعودي لارتدائه هذه الملابس، وعندما كان برفقة أصدقائه تمكن من الدخول إلى مسجد الرسول من أبوابه الخمسة وليس فقط من [باب السلطان عبد المجيد] الذي أُجبر الحجاج الآخرون على التقيد به. أمّا بوّابو المسجد فكانوا سعداء لغضّ الطرف عن السعودي وعدم التبليغ عنه، وإن شكّوا بوجود خطب ما.

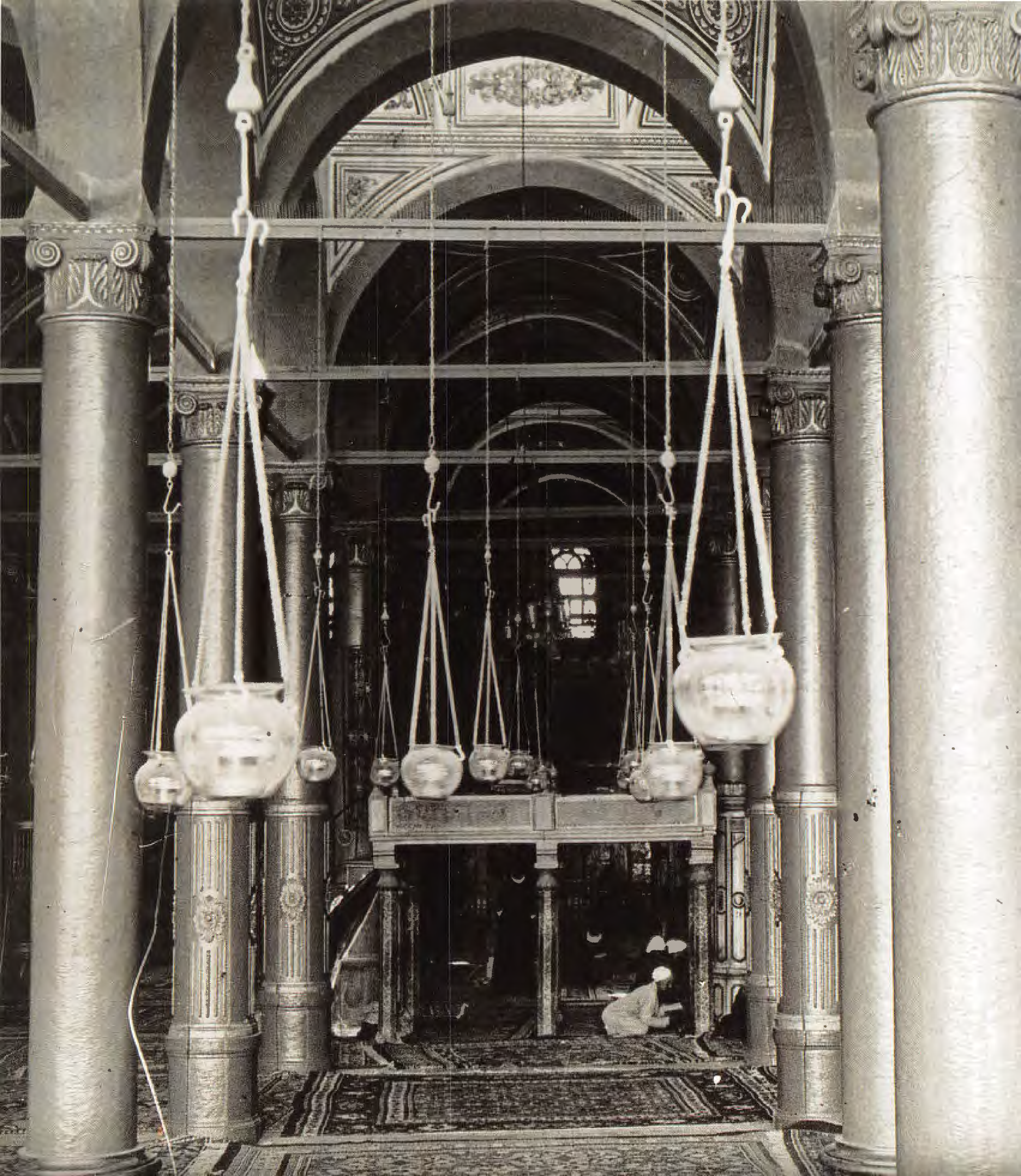
أشار بعض المصلّين خلال صلاة الجمعة إلى السعودي وسألوا إبراهيم الخربوطي عن هوية هذا الرجل الغريب. ادعى الخربوطي أن السعودي من أهل مكة، حتى يتمكن الأول من حمايته. وعندما سمع المتسائلون الإجابة، ردّوا قائلين: «إن أهل مكة ليسوا على هذا القدر من الأدب والتهذيب»!

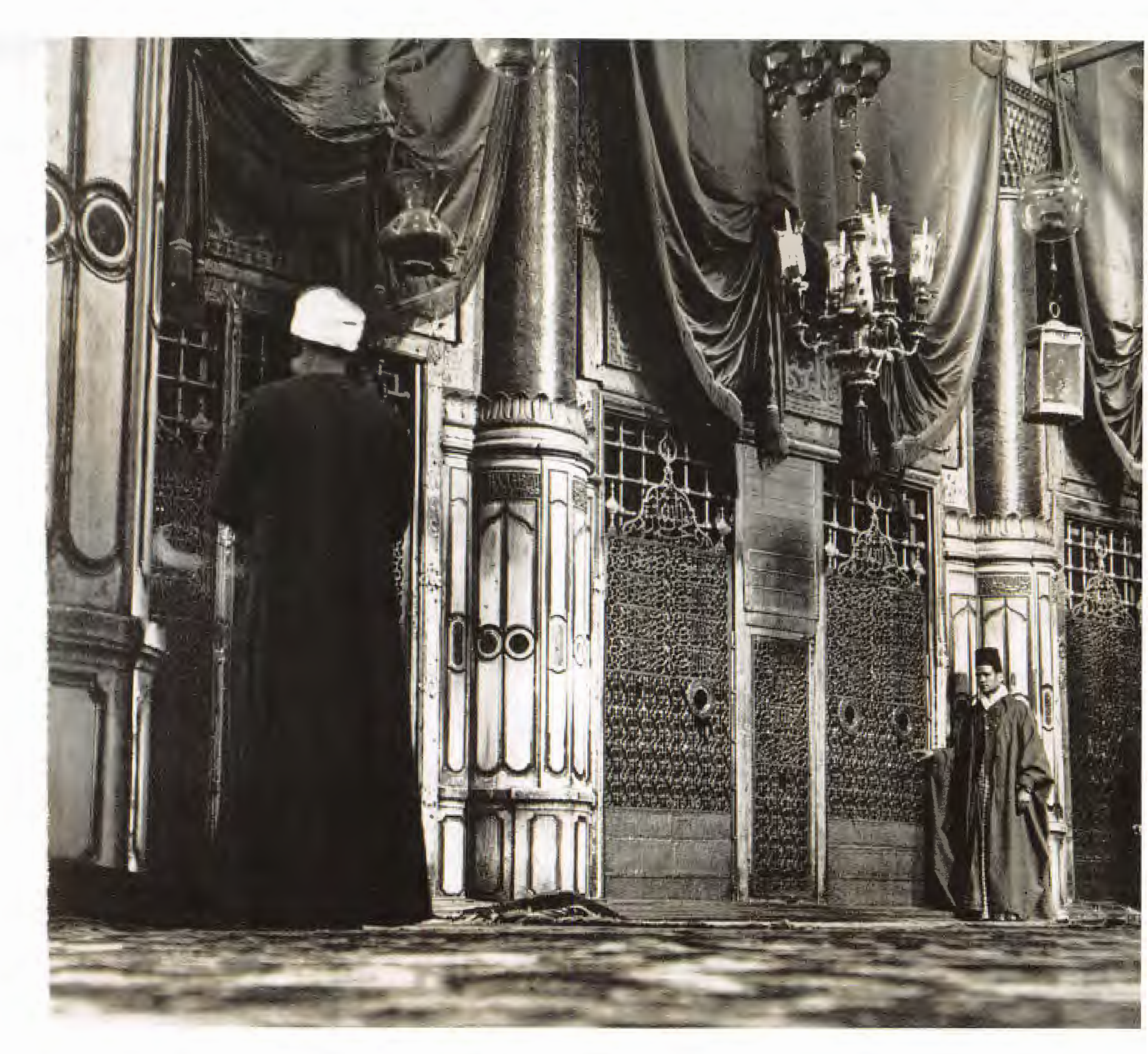
وجد السعودي المدينة «فارغة، وكل الأبواب والدكاكين موصدة، فلا ترى أي شخص في شوارعها»، ولقد تجمهر الناس عند المسجد النبوي في حين حاول الحراس منع من هم من خارج المدينة من الدخول. تناقلت الأخبار عن مقتل امرأة، سحقاً تحت أقدام زوار المسجد الذين تدافعوا للدخول. وبعد انتهاء صلاة الجمعة، سعى الحجاج إلى الخروج من أحد بوابات المسجد التي لم يُسمح لهم بعبورها. حاول الجنود إغلاق بوابات المسجد ولكن بعض الحجاج السوريين الغاضبين تحكموا بزمام الأمور، فقبضوا على اثنين من رجال الدولة حتى يتمكنوا من مغادرة المكان وقتما شاؤوا.

حاول السعودي معرفة السبب وراء فرض قيود على دخول الحجاج إلى مسجد الرسول. فأخبر شخص ما السعودي أن حاكم المدينة المنورة فرض هذه القيود حتى يجبر الغرباء القادمين من خارج المدينة على البقاء خارج أسوارها، وذلك حتى يتمكن من تأجير المنازل التي يمتلكها هناك، بسهولة. غير أن تفسيراً آخر قد برّأ حاكم المدينة، فلقد حدّدت السلطات العثمانية (الباب العالي)، على ما يبدو، عدد الحجاج الزائرين لمسجد الرسول بعشرة حجاج في الزيارة الواحدة. لقد كانت

باحة المسجد النبوي، مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وتبدو في الصورة قبة المسجد الخضراء الشهيرة وإحدى مآذنها الأربعة.







المصابيح الزجاجية الزيتية (الفنابر) التي كانت توقد بالكيروسين، في المسجد النبوي.

الحاجز المعدني ذو القضبان المتشابكة المثبت أمام قبر الرسول – صلى الله عليه وسلم. ويعدّ قبر الرسول أكثر بقعة مقدسة في هذا المسجد العظيم.

تعليمات الباب العالي هذه معقدة للغاية وغير شائعة، ولذلك كان من الصعب على حاكم المدينة المنورة تنفيذها إذا ما أخذنا بعين الاعتبار عدد الحجاج الذين أرادوا الدخول إلى مسجد الرسول. وعندما رأى السعودي حاكم المدينة، بجوار ضريح الرسول، بعد ذلك، كان الأخير محاطاً بالعديد من الجنود الذين وفّروا له حراسة مشدّدة، ذلك أنه لم يكن محبوباً من جانب الحجاج، لمحاولته التحكم فيهم.

بعد أن أدى واجباته الدينية، توجه السعودي إلى مكتب البريد الموجود في ضواحي المدينة، لإرسال برقية عبر التلغراف إلى عائلته في القاهرة، ليخبرهم عن وصوله سالماً إلى المدينة. وجد السعودي الموظفين في مكتب بريد المدينة أكثر سلاسةً من أولئك في مكة المكرمة. وفضلاً عن ذلك، واجه السعودي، عند محاولته التقاط بعض الصور، مشاكل أقل من تلك التي واجهها في مكة.

انقضت الأيام التسعة التي أمضتها القافلة في المدينة المنورة بسرعة، ثم بدأت القافلة بالتجمع استعداداً لرحلة العودة إلى القاهرة في الثاني والعشرين من شباط. ظهر خليل، الجمّال المشاكس، من جديد بعد أن قام بزيارة زوجته. لم تتحقق وعود الأمير بإيجاد بديل لخليل، وخشي السعودي أن يظلّ عالقاً مع هذا الشخص غير الموثوق به خلال الرحلة الشاقة التالية إلى الساحل. تملق خليل السعودي، في وجود الأخير، بطريقة ذليلة اعتادها العبيد. أما في غياب السعودي، فكان الأمر مختلفاً، إذ علم السعودي أن خليلاً تحدث سراً مهدّداً بما يمكن أن يحدث عند آبار درويش إذا لم يدفع السعودي المزيد مقابل الجمال. كما هدّد خليل الضباط الذين يحرسون المحمل مدّعياً أن الحملة ستعاني الكثير إذا لم يتم رفع الأجرة المدفوعة مقابل الجمال. كان هذا الجو نذير شؤم للقافلة التي ارتحلت على نحو مفاجئ ومبكر في الرابع والعشرين من شباط.

سلكت القافلة الطريق السلطاني المؤدي إلى ميناء ينبع المطل على البحر الأحمر، وذلك إذعاناً لإذن السفر الممنوح للمحمل المصري. كان الطريق السلطاني هو الطريق ذاته الذي أمل السعودي

باب السلام الذي أجبر الحجاج على استخدامه عام ١٩٠٨، حيث كان المدخل الوحيد المتوافر لهم إلى مسجد الرسول أو المسجد النبوي.



* المدخل المؤدي إلى التكية المصرية في المدينة المنورة. وعلى غرار التكايا الأخرى في مكة، قدّمت التكية المصرية العون للحجاج وزودتهم بمسكن ملائم.

* باحة التكية المصرية، وتبدو فارغة، في حين يظهر في الخلف المسجد النبوي العظيم. يظهر العديد من الشاكدافات؛ المقاعد المغطاة التي ثُبتت على ظهور الجمال، وقد وُضعت أمام الممرات ذات الأقواس.

* الفقراء من الحجاج وأهل المدينة المنورة بانتظار الحصول على وجبة مجانية تكونت في مجملها من الخبز والبسكويت المجفف (البقسمات) والأرز.







ميدان المناخة[1] (al-Manakha) وهو حيز يشبه الهلال، في الهواء الطلق، امتد أسفل القلعة شمالاً وحول الجهة الشرقية من جدران المدينة الداخلية. تمتد منازل أخرى في الجهة الخلفية من يسار الصورة، خارج أسوار المدينة، ولا يمكن رؤيتها، لكن القلعة تبدو واضحة في خلفية الصورة.

---

(1) يقع حي المناخة غربي المسجد النبوي من ثنية الوداع (الشامية) شمالاً إلى بداية قربان جنوباً. كان القسم الشمالي منها ميداناً للتدريب على ركوب الخيل والرماية وكان رسول الله يحضر بعض هذه التدريبات. (المترجم)



منظر لميدان المناخة يوضح الأسوار الشرقية للمدينة وبعض خيام الحجاج. توقفت القافلة المصرية في هذه البقعة، خلال رحلة السعودي الثانية، في حين كانت بانتظار الحصول على إذن بالسفر بعد أن أجبرتها بعض القبائل العدائية على التخلي عن فكرة سلوك الطريق المؤدي إلى ميناء ينبع. يقع المدخل المؤدي إلى الأجزاء الداخلية للمدينة من جهة الشمال، أقصى اليمين ويقع إلى اليسار منه، منزل شريف المدينة المنورة، الأعلى مقاماً وشأناً.

تجنبه لأنه محفوف بالمخاطر التي كانت قبائل البدو، المعارضة لمحطة الحجاز، مصدرها.

وبينما اتجهت القافلة جنوباً، حظي السعودي بآخر نظرة لمآذن المسجد النبوي وقبته الخضراء المهيبة. تأثر السعودي بشدة، فانهمرت دموعه وهو يفكر بالرسول – صلى الله عليه وسلم – ورسالته.

كانت رحلة العودة سهلةً نوعاً ما، فقد كانت الحرارة محتملة في طريق يخلو من المعالم الواضحة باستثناء الجيف (الجمال النافقة) المبعثرة في هذا المنظر الطبيعي الذي يتكون جُلّه من صخور بازلتية وبعض الأشجار. وصلت القافلة إلى آبار علي حيث خيّم الحجاج كي يحصلوا على قسط من الراحة وينطلقوا في اليوم التالي، دون أن يتعرضوا لأي حوادث خطيرة، متوجهين إلى آبار درويش.

بحث الأمير، في تلك الليلة، خطة الانطلاق في اليوم التالي، وأرسل فرقة لاستطلاع الطريق وأشار تقريرها إلى خلوّ الطريق من البدو. عقد الأمير، في فجر اليوم التالي، اجتماعاً آخر مع قائد القوات وممثّل حاكم المدينة المنورة، الذي أكد أن الطريق آمن.

وعلى الرغم من تأكيد الجميع على سلامة الطريق، قرر الأمير تخصيص ألف ريال لاستخدامها كرشاوٍ تُدفع لقبائل البدو من الردّادة (Al-Radada) والرّحلة (Al-Rahla)،



* مسجد الغمامة (Ghumama) وسط ميدان المناخة! وقد سُميّ كذلك نسبة إلى الغيمة التي ظلّلت الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذه البقعة قبل أن يقيم الصلاة في هذا المسجد.

* صورة جماعية لأمير بن عبد العزيز الراشد (Amir bin 'Abd al-'Aziz al-Rashid)، وهو أحد أكبر الأخوة، وأعمامه وقد جلسوا جميعاً في شرفة المنزل العلوية في منزلهم في منطقة المناخة. التُقطت الصورة في آذار من عام ١٩٠٨. جاء آل راشد من شمالي نجد (Najd) وجمعوا ثروتهم من حقيقة كونهم يقطنون على امتداد طريق الحجاز. حكم أعمام أمير فيما بعد لكونهم أصحاب مقام عالٍ. كان آل راشد حلفاء للعثمانيين، وألدّ أعداء آل سعود. كانت تلك المجموعة البادية في الصورة قد وصلت لتوها إلى المدينة بعد رحلة دامت تسع ليالٍ هرباً من أعدائهم.

* أمير بن عبد العزيز آل راشد، وكان عمره عشر سنوات. يجلس أمير في منزل العائلة في المدينة المنورة وقد ارتدى زي القبيلة التقليدي كاملاً، وحمل سيفاً مما يدلّ أنه نشأ ليكون مقاتلاً بارعاً. اغتيل أمير بن عبد العزيز بعد مرور عشر سنوات على يد أحد أبناء عمومته.

إذا دعت الحاجة لذلك. اعتقد السعودي أن تصرف الأمير الاحترازي كان حكيماً، وقال: «لا نعلم إن كانت هذه القبائل قد طلبت رشىً من قبل، أم لم تفعل».

اتخذ الأمير إجراء احترازياً آخر، فمنع استخدام العيارات النارية لإعلان انطلاق القافلة. أما السعودي، فاعتقد أنه لا حاجة لمثل هذه الأمر «فالبدو سيدركون وجودنا دون الحاجة إلى سماع أي عيارات نارية».

تعرّضت القافلة لنيران بدو الردّادة، بعد خروجها من آبار درويش بنصف ساعة وبينما كانت في طريقها إلى ميناء ينبع حيث اقتربت القافلة من وادٍ ضيق يقع في منطقة تسيطر عليها هذه القبيلة. انتهت المفاوضات إلى دفع القافلة المصرية مبلغ مائة وستين ريالاً مقابل مرورها بسلام. ولكن، سرعان ما استؤنف إطلاق النيران بعد مرور ثلاثين حاجاً فقط عبر الممر الضيق. ويبدو أن قبيلة

أخرى كانت تطلق النيران هذه المرة. ردّ الجنود المرافقون للحملة، في الحال، على العدوان فحاولوا صرع رجال القبائل الذين اختبؤوا خلف الصخور، أعلى الجبل. هُرع الحجاج بحثاً عن أي شيء يحميهم من نيران البدو، فاختبأ معظمهم خلف جمالهم، في حين استمر الإطلاق المتواصل للأعيرة النارية. وهكذا تطايرت الرصاصات في كل مكان.

أدت استجابة الجنود الجريئة إلى وقف إطلاق النيران، ولكن كان هنالك عدد لا بأس به من الإصابات في صفوف الحجاج والجنود. فعلى سبيل المثال، أصيبت امرأة حاولت الاحتماء بدلوٍ معدني وضعته فوق رأسها، ثم فارقت الحياة فيما بعد. وبالإضافة إلى ذلك، قُتل أحد الجنود وجُرح خمسة آخرون، كما قُتل أربعة من الخيول وجُرح فرس الأمير، ونجا الأمير بصعوبة من عيار ناري كاد يصيب قدمه.



القبة الخضراء للمسجد النبوي العظيم في المدينة المنورة كما تبدو من سطح أحد المنازل. لقد بكى السعودي عندما نظر إلى المسجد للمرة الأخيرة، وذلك حين انتهى من أداء فريضة الحج للمرة الثانية.

صورة الإمام أو خطيب صلاة الجمعة في المسجد النبوي في المدينة المنورة برفقة ابنه. أراد السعودي أن يبتكر بيئةً شبيهةً ببيئة الاستوديو لالتقاط هذه الصورة، فاستخدم قماشاً أبيض اللون كخلفية لأغراض الإضاءة.

أعلن أفراد القبيلة المهاجمة، عبر صرخات أطلقوها من مكانهم أعلى الجبل، إنهاء هذا العدوان مقابل دفع الحملة لرشوة مقدارها أربعمائة ريال. سُلّم المبلغ المطلوب بيد أن البدو أخلّوا بالعهد بعد مضيّ ساعتين، واستأنفوا إطلاق النار من جديد على القافلة التي كانت لاتزال تحاول عبور الممر الجبلي الضيق، وعندها أمر الأمير جنوده بالرد على الهجوم وتسلق الجبل من الجهة المقابلة لموقع البدو الذين استمروا في إطلاق الرصاص.

أصيبت بعض الجمال بالذعر داخل هذا الحيز الضيق، فقذفت الركاب عن ظهورها. «رأيت الجمال الثمانية التي تحمل مقتنياتي الثمينة، وهي تلقي بها على الأرض ولاسيما معدات التصوير



ضريح عثمان (Uthman’) بن عفان؛ الخليفة
الثالث. شُيد في القرن الثاني عشر وأعادت
السلطات العثمانية ترميمه.





مسجد قِباء ويقع في الضواحي الجنوبية للمدينة المنورة وتبدو دعامات المسجد الدائرية الشكل واللافتة للنظر، ذات الارتفاعات المختلفة. وإلى اليسار يظهر مسجد فاطمة (Fatima) ومسجد شمس (Shams).



بئر خاتم[1] (Khatim) في قِباء (Qiba') ويبلغ عمقه اثني عشر متراً ويعدّ مصدراً مهماً للماء العذب بالنسبة إلى المدينة المنورة. يُقال إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد خاتمه عندما سقط في هذه البئر.



مجموعة من وجهاء المدينة المنورة. اللّواء رفعت، أمير الحج وقد ارتدى جلابية بيضاء اللون ويجلس إلى يمينه إبراهيم الخربوطي؛ صديق السعودي وأمين مكتبة المدينة. أما الرجل الذي يرتدي البزة العسكرية فهو ضابط من بغداد وكان في إجازة. دُعيت هذه المجموعة إلى منزل السيد باري زادة (Al-Sayyid Barri Zada)؛ الحارس المسؤول عن الباحة المقدسة حيث يوجد قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم.

---

(1) بئر خاتم: ويطلق عليه أيضاً بئر أريس نسبة إلى رجل من اليهود، وقد وقع فيه خاتم الخلافة عندما سقط من عثمان بن عفان (وليس من الرسول كما يذكر المؤلفان) في السنة السادسة من خلافته، وهو الخاتم الذي كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم. (المترجم)

ونقودي والقطع الأثرية وملاحظاتي المكتوبة المتعلقة برحلتي هذه». تساءل السعودي عن مقدار الضرر الذي لحق بحاجياته، في حين كان بحاجة ماسة إلى المساعدة لجمع ما وقع على الأرض.

عادت القافلة أدراجها بسرعة فائقة تحت حماية من تبقى من الجنود، حتى وصلت آبار درويش الآمنة. حاول الحجاج الذين وقعوا تحت تأثير الصدمة أن يتجاوزوا محنتهم هذه بأفضل الطرق وأن يتعافوا منها، وهم يقضون ليلتهم في آبار درويش.

وصف السعودي الأمر في يومياته «بدا الحجاج في تلك الليلة منهكين للغاية، وشعروا بالغثيان والوهن الشديد؛ ظهروا وكأنهم قد فرّوا من بين فكيّ الموت»، وبينما كان الأمير يحضّر لعودة القافلة إلى المدينة، خلال رحلة متواصلة مرهقة، فقد سعى جاهداً، بكلّ ما أوتي، إلى طمأنة الحجاج.

عندما عاد الأمير إلى المدينة، بدأ حملة احتجاجات واسعة حول الحادثة المؤلمة التي تعرضت لها القافلة. وفي اليوم التالي أرسل برقيات إلى السلطات العثمانية في القاهرة وضح فيها إخفاق سلطات الحجاز في ضمان سلامة المحمل، كما استغل الفرصة لتسليط الضوء على المشاكل الخطيرة التي تعرض لها الحجاج بسبب رفض القبائل مشروع محطة الحجاز.

تكشّف بعد ذلك أن رجال القبائل اعتقدوا أن المشير كاظم باشا؛ رجل الدولة الذي عينه الباب العالي لاستكشاف الطريق الذي ستُنشأ عليه سكة الحجاز الحديدية، رافق الحملة في رحلتها هذه، لذلك قاموا بمهاجمتها باستمرار. لقد هاجم البدو في السابق الموكب المسلّح المرافق لكاظم باشا، لذلك، كان الأمير أكثر حذراً في تقدير أفضل طريقة لمتابعة الرحلة.

وبينما كان الأمير بانتظار الحصول على إذن لتغيير الطريق الذي ستسلكه القافلة خلال رحلة العودة، قام بدراسة كل الخيارات المتاحة ومناقشتها مع مستشاريه العسكريين، وقد راقب السعودي سلوك الأمير بإعجاب كبير.

«كان [الأمير] رجلاً مستقيماً كفوءاً، يقدم المصلحة العامة دوماً ويجعلها أهم أولوياته. يعلم كل أمراء الحج أن الخديوي عيّنهم وأنه لا يوجد أي ضمان لتجديد تعيينهم كل عام، لذلك تجد العديد

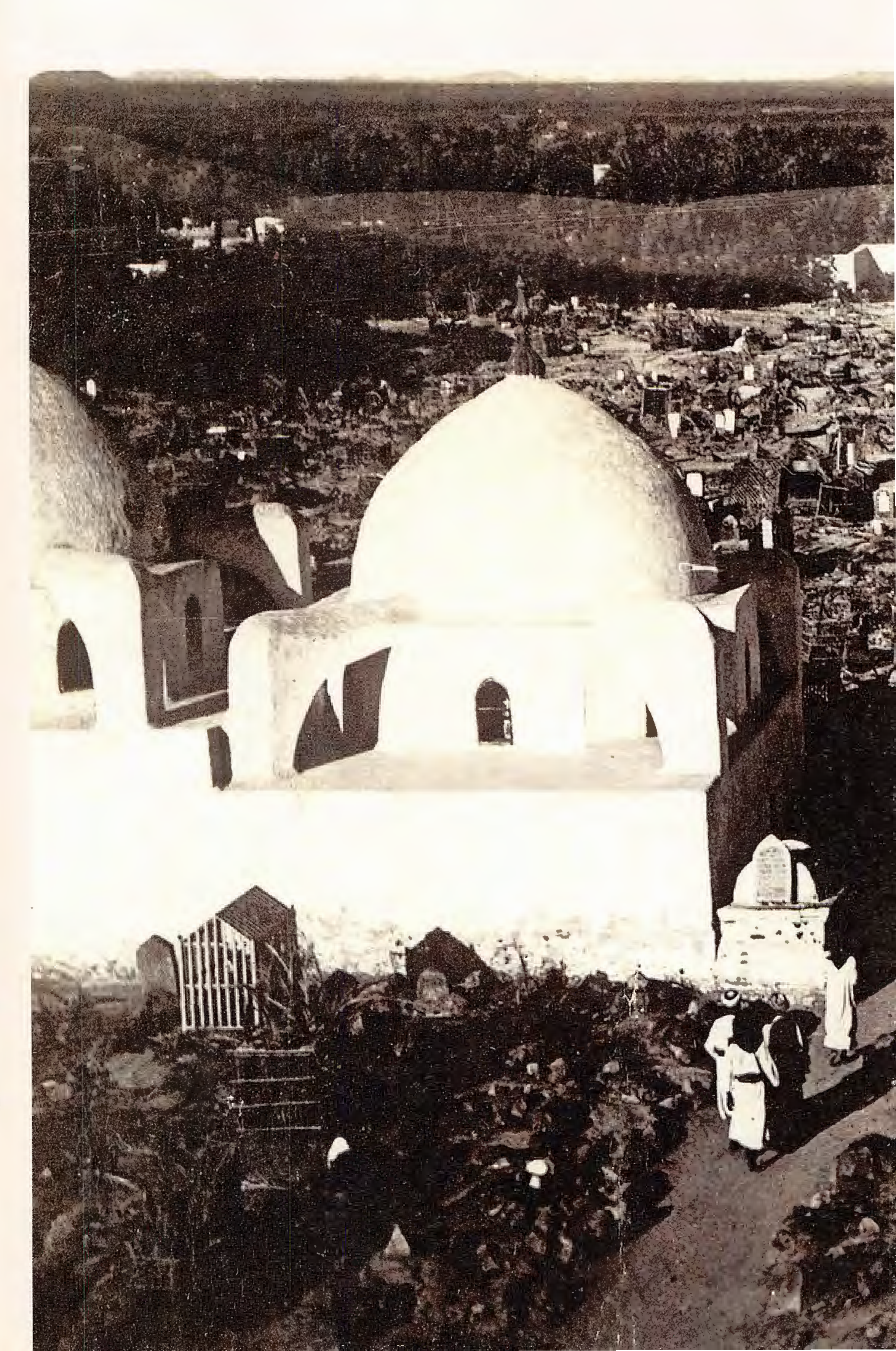
من المرشحين يتنافسون على هذا المنصب وغيره من المناصب المرتبطة بالمحمل. وفي حين ينصب اهتمام بعضهم على الهيبة والنفوذ المرتبطين بهذا المنصب فقط، يسعى آخرون وراء الأجرة التي تُدفع مقابل هذا العمل والتي تصل إلى خمسة آلاف جنيه».

اضطرت القافلة أن تخيم خارج أسوار المدينة، في منطقة المناخة، في الوقت الذي كان فيه الأمير بانتظار الحصول على إذنٍ لتغيير مسار القافلة. توالت الأيام دون ورود ردّ من القاهرة، ونفد صبر الحجاج. وبدا الأمر وكأن القافلة ستنتظر إلى الأبد؛ هكذا شعر السعودي الذي حاول أن يشغل نفسه بالتقاط بعض الصور، أما الحجاج فاختلفوا فيما بينهم بشأن أفضل طريق يتوجب سلوكه للعودة إلى الوطن. فضّل بعضهم رحلةً طويلةً باتجاه الشمال، عبر دمشق إذ بدت رحلة آمنة بالنسبة إليهم.

مضى شهر قبل حصول الأمير على الإذن اللازم من القاهرة والباب العالي. ومن ثمّ، حصل ما يقارب الأربعمائة وثلاثين حاجاً على الإذن بالسفر عبر دمشق والعودة إلى القاهرة، قرب نهاية آذار. كان خطّاب أفندي، المهندس وصديق علي بهجت الذي رفض مغادرة الحجاز والعودة مع الأخير إلى القاهرة، من ضمن الحجاج الذين آثروا طريق دمشق، في حين غامر أربعة وخمسون حاجاً بسلوك الطريق الأقصر المؤدي إلى ميناء ينبع.

أما من تبقى من الحجاج فلازموا الأمير ومسؤولي الحملة الذين تخلفوا عن البقية من أجل جمع بعض المال لتعويض الخسائر الناجمة عن تأخر الحملة، والمتمثلة في استهلاك محتوى خزانة الحملة. حصلت الحملة، في نهاية المطاف، على الدعم المطلوب من مال التكية المصرية في المدينة المنورة بناء على أوامر صدرت من القاهرة.





المقبرة الرئيسة الموجودة في البقيع ('Al-Baqi)، خارج المدينة المنورة، حيث دُفن العديد من عائلة الرسول. اعتاد أهل المدينة وضع زهور وريحان على هذه القبور كلّ يوم خميس. وقد تقاضى القيّمون على المكان مبلغاً مقابل دخول الزوار إلى هذه الأضرحة. لقد اندثر هذا المقام الآن.



السعودي، الثالث من اليمين، وقد جلس بجوار اللواء رفعت مع مجموعة من الرجال أمام قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب؛ عم الرسول – صلى الله عليه وسلم، غير أن هذا القبر قد دُمّر فيما بعد[1].

(1) أدى سيل جارف إلى كشف بعض قبور الصحابة في مقبرة البقيع ومنهم قبر حمزة بن عبدالمطلب. (المترجم)

* بئر في البقيع رُفِعت منها الماء عبر ساقية (ناعورة) تجرها البهائم وقد أُطلق على هذه الطريقة النّخولي (Nakhuli)، ذلك أن البئر كانت وسط بستان زرعت فيه أشجار النخيل.

* الشيخ حازم عبد الله مليح (Hazim ʻAbdullah Malih) وهو ممثّل المقوّم (Al-Muqawwam) ودياب أفندي (Diab Effendi)؛ زعيم أحد قبائل المدينة المنورة، وقد استعدّا لالتقاط صورتهما وهما يمسكان بمهمازين خاصين بركوب الجمال.

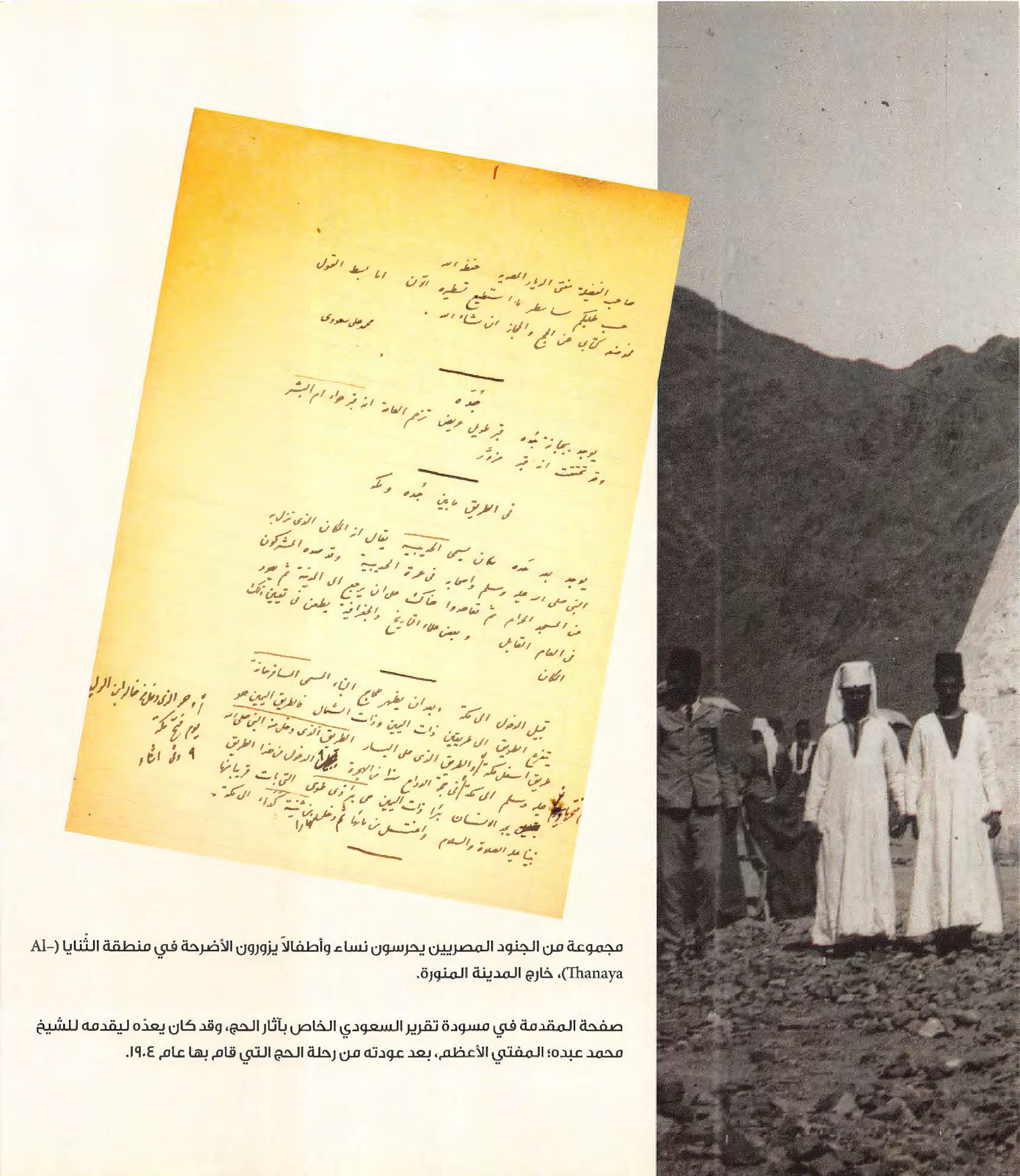
* أحد الموظفين وقد جلس للحصول على قسط من الراحة برفقة ابنه وصديق من المدينة المنورة.











صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية حفظه الله

حسب طلبكم سأسطر ما أستطيع تسطيره الآن إنما بسط القول

موضعه كتاب عن الحج والحجاز إن شاء الله.

محمد علي سعودي

جده

يوجد بجوار جده قبر طويل عريض تزعم العامة أنه قبر حواء أم البشر

وقد تحققت أنه قبر مزوّر

في الطريق ما بين جده ومكه

يوجد بعد جده مكان يسمى الحديبية يقال إنه المكان الذي نزل به

النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في غزوة الحديبية وقد صده المشركون

عن المسجد الحرام ثم تعاهدوا على أن يرجع إلى المدينة ثم يعود

في العام القابل وبعض علماء التاريخ والجغرافية يطعن في تعيين ذلك

المكان

قبيل الدخول إلى مكة وبعد أن يظهر للحاج البناء المسمى [illegible]

يتفرع الطريق إلى طريقين ذات اليمين وذات الشمال فالطريق اليمين هو

طريق أسفل مكة أو الطريق الذي على اليسار الطريق الذي دخل منه النبي صلى الله

عليه وسلم إلى مكة [illegible] حجة الوداع سنة [illegible] من الهجرة [illegible] الدخول من هذا الطريق

[illegible] به الإنسان [illegible] ذات اليمين [illegible] بئر ذي طوى [illegible] الثنيات قريبا منها

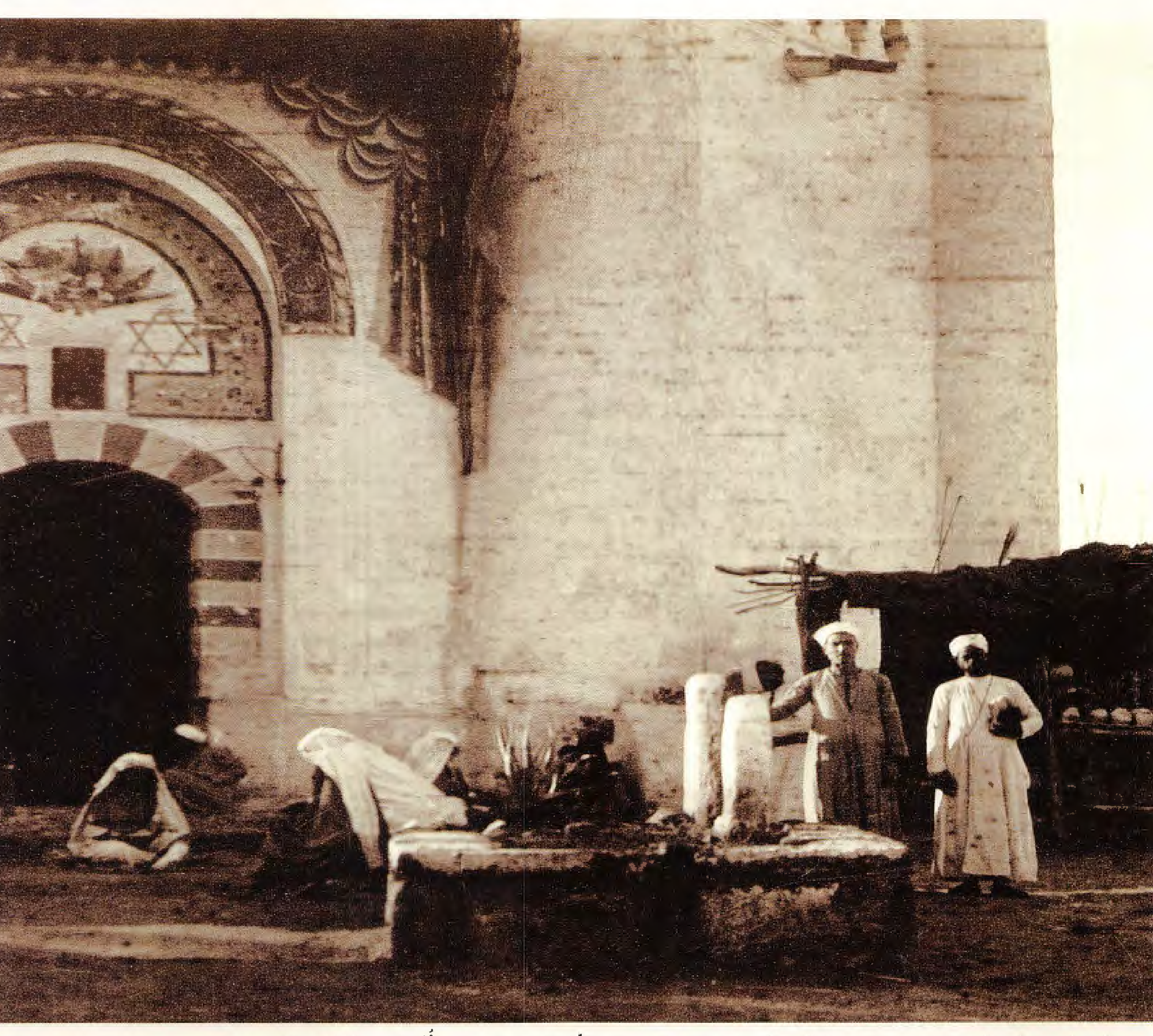
نبينا عليه الصلاة والسلام [illegible] اغتسل من مائها ثم دخل [illegible] كداء إلى مكة.

أو هو الذي دخل منه خالد بن الوليد

يوم فتح مكة

مجموعة من الجنود المصريين يحرسون نساء وأطفالاً يزورون الأضرحة في منطقة الثّنايا (Al-Thanaya)، خارج المدينة المنورة.

صفحة المقدمة في مسودة تقرير السعودي الخاص بآثار الحج، وقد كان يعدّه ليقدمه للشيخ محمد عبده؛ المفتي الأعظم، بعد عودته من رحلة الحج التي قام بها عام ١٩٠٤.



المدخل المؤدي إلى مسجد حمزة بن عبد المطلب؛ عم الرسول – صلى الله عليه وسلم – في أُحُدٍ (المدينة المنورة).

الفصل التاسع

التوجه نحو الوطن

أراد الأمير أن يعود إلى الوطن عبر سكة الحجاز الحديدية ليقطع أكبر قدر من الطريق بسرعة. وعلى أي حال، حدثت أمور مختلفة أدت إلى تعطيل القطار مرات عدّة، مما جعل تحقيق خطة الأمير أمراً مستحيلاً، لذلك قرر الأمير أن على القافلة، التي تقلص حجمها الآن، أن تتبع مسار القطار شمالاً قبل أن تتشعب جهة الغرب نحو ميناء الوجه (Al-Wajh)، المطل على ساحل البحر الأحمر.

وهكذا، كان على القافلة أن تسافر مدة أسبوعين في رحلة برية قاسية عبر الجبال والصحراء. بيد أن السعودي كان مبتهجاً لتحرك القافلة من جديد، في نهاية المطاف. وعلى غرار العديد من الحجاج أدت الأيام الإضافية التي قضاها في المدينة المنورة إلى استنزاف ما تبقى من أمواله.

تغيب خليل كثيراً خلال تلك الأيام الإضافية التي قضتها القافلة في المدينة، وندر أن يظهر. قام حازم (Hazim)، جمّال الأمير، بتزويد السعودي بجمّال آخر وابنه البالغ من العمر عشر سنوات. تقلص عدد الجمال التي استأجرها السعودي إلى ستة، وقد رغب السعودي في استئجار المزيد من الجمال، لكنه لم يستطع تحمل نفقة ذلك.

اليوم الأول. الرابع من نيسان. (من المدينة إلى آبار الزّيني (Al-Zayni).

كانت سرايا الجنود العثمانيين التي تحرس سكة الحجاز الحديدية حاضرة بوضوح على طول الطريق المؤدي إلى آبار الزّيني التي استغرق الوصول إليها عشر ساعات. قدم هؤلاء الجنود العون للقافلة بوساطة الإشارة إلى كون الطريق آمناً أو أن فيه مخاطر جمّة. سلكت القافلة طريقاً جيداً خلال النهار امتدت بمحاذاته أعمدة الاتصال التلغرافي على مسافات مختلفة. لاحظ السعودي أن الأسلاك قد ثُبّتت بهذه الأعمدة بطريقة غير متقنة؛ «بمسمار معقوف واحد فقط، بدا [من بعيد] مثل حبة أرز».

وقد أصبحت الطريق بحلول الليل، أكثر وعورة إذ تبعثر فيها الحصى وأشجار الطرفاء[1] (Al-Tarfa). عندما توقفت القافلة كان السعودي يعاني من ألم شديد في رأسه وكان غير قادر على تناول أي طعام.

(1) الطرفاء: (تُعرف بالإنجليزية (tamarisk)) شجرة نحيلة تكثر في أوراسيا وإفريقيا. (المترجم)

اليوم الثاني. الخامس من نيسان. (من وادي الزّيني (al-Zayni) إلى قرية الملاليح[1] (Al-Malalih)).

وبينما تبعت القافلة خط سكة الحجاز الحديدية، لاحظ السعودي أن المسار الجديد قد غطته الرمال في أماكن مختلفة. صادف السعودي، في بقعة أخرى، بعض الجنود السوريين الذين كانوا يحفرون خنادق ويُعدّون الأرض لتثبيت سكة القطار الحديدية. في تلك الليلة، زار الضباط العثمانيون والمهندسون العاملون على مشروع محطة الحجاز، الأمير. شعر السعودي بالاستياء تجاه أحد الضباط الذي تحدث بالفرنسية بغرور واضح، مُثنياً على مهارات العاملين على المشروع، وشكر السماء على حكمة السلطان العظيمة وبُعد نظره اللذين أديّا به إلى ابتكار هذا المشروع.

اليوم الثالث. السادس من نيسان (من قرية الملاليح إلى المجرى (Al-Majra)).

في هذا اليوم بدأت القافلة رحلة جديدة في وقت مبكر واستمرت لثلاث عشرة ساعة سلكت خلالها أرضاً سهلةً مستويةً انتشرت فيها بعض الأشجار الطوية المتفرقة. وبحلول الظهيرة، أصبح الطريق ضيقاً بين الجبال، على نحو يُنذر بالسوء إلا أن الجنود العثمانيين كانوا في الجوار لحماية الحجاج من رجال القبائل العدائيين. ساعدت الفرقة الموسيقية المرافقة للمحمل على قضاء الوقت عندما بدأت بعزف الأغاني المألوفة والتي تُنشد عادة عند مغادرة المحمل للقاهرة. أثارت هذه الأغاني داخل السعودي مشاعر الحنين إلى الوطن، لأنها ذكرّته بأصدقائه وعائلته الذين هم بانتظار عودته.

اليوم الرابع. السابع من نيسان. (من المجرى إلى بئر أبي الحلو (Abu-l-Hilu)).

انطلقت القافلة قبل الظهيرة وتركت خلفها سكة الحجاز الحديدية إذ انحرف الطريق تدريجياً جهة الغرب، وأصبحت تغطيه الرمال الصفراء والأخاديد الجافة التي خلّفتها الأمطار الغزيرة. أما العلف فكان متوافراً بكثرة لإطعام الجمال. وصلت القافلة إلى بئر أبي الحلو بعد مرور ثماني ساعات. يخبرنا السعودي أن «هذه البئر سُميت كذلك على الرغم من طعم مياهها المرّ».

(1) تقع قرية الملاليح بالقرب من وادي الحمض على بُعد نحو 55كم شمال غرب المدينة المنورة. (المترجم)

تلقى السعودي زيارة من زعيم قبيلة عُروة (Urwa') بمجرد أن نُصبت خيمته. التقى السعودي بهذا الشاب العشريني أول مرة خلال رحلة الحج السابقة. «كان هذا الشاب شديد الانتقاد للأتراك وانعدام إخلاصهم وولائهم». قدّم السعودي مرآة صغيرة كهدية لهذا الشيخ الشاب، مما أبهجه للغاية. «قمتُ بعد ذلك بالتقاط صورة له وقد ارتدى العمامة (البيريه)[1] المزينة بعيدان قصب السكر». غادر الشيخ الشاب خيمة السعودي بعد أن احتسى كوباً من الشاي وتناول بعض الكعك، ووعده السعودي أن يُرسل له الصورة في نهاية الأمر.

اليوم الخامس. الثامن من إبريل. (من بئر أبي الحلو إلى السبخات[2] (Al-Sabkhat)).

استأنفت القافلة رحلتها في صباح كئيب فلقد تلبدت السماء بغيوم منخفضة وانخفضت الرؤية بفعل ضباب رقيق. أصبحت السماء صافية بحلول الظهيرة، وشعر السعودي بالحرارة تخيم على هذا المشهد الطبيعي الرّتيب، ثم سرعان ما شكّل سطح الأرض الأبيض الذي تناثرت فوقه حبات الرمال، سراباً متلألئاً برّاقاً. توقفت القافلة للحصول على قسط من الراحة بعد ارتحالها لسبع ساعات. لاحظ السعودي، عندما ترّجل عن جمله، أحجار الخفّاف الرمادية اللون[3] المتبعثرة هنا وهناك، مثل تلك الموجودة في مصر ويطلق عليها «الأسيوطي» (Al-asyuti) وهي تُستخدم للتخلص من الجلد الخشن في أخمص القدم. وجد السعودي كذلك النبات المعروف بكف مريم[4] (Kaff Maryam)، وتعود التسمية إلى شكل أوراقه التي تشبه كفاً مقبوضة، كما يُعتقد في الفولكلور العربي أنها تحاكي يد مريم العذراء عند المخاض.

انطلقت القافلة مرة أخرى وسلكت طريقاً يبدو أنّ ما من أحد قد سلكه مؤخراً. اضطرت

---

(1) العمامة (البيريه): قلنسوة مستديرة مسطحة لينة. (المترجم)

(2) تنتشر السبخات عادة في المنطقة الشرقية، على طول الساحل الغربي للخليج العربي وفي المناطق الشمالية والشرقية من الربع الخالي. وأهم هذه السبخات ما يُعرف بسبخة «مُهلكة» وسبخات «يبرين» وسبخات الخليج العربي. (المترجم)

(3) أحجار الخفاف: صخور بركانية تتكون من رغوة سيليكاتية تتخللها الغازات التي تتحول إلى صخور عندما يلفظها البركان. (المترجم)

(4) كف مريم: تُعرف هذه النبتة كذلك بكف العذراء، وهو نبات عشبي حولي قصير ينمو بعد سقوط الأمطار في الخريف مع بداية الشتاء في الأماكن ذات التربة الطمية الحصوية التي تستقبل بعض مياه السيول. (المترجم)



ميناء ينبع حيث أبحر السعودي عائداً إلى القاهرة بعد أداء فريضة الحج عام ١٩٠٤. أما في عام ١٩٠٨ فلقد خططت القافلة أن تغادر من الميناء ذاته، إلا أنها اختارت طريقاً بديلاً طويلاً يؤدي إلى ميناء الوجه بسبب تحرّش بعض قبائل البدو العدائية.

(في الوسط) كشيان بن سالم فضل (Kishyan ibn Salim Fadil)؛ زعيم قبيلة عُروة الذي أرشد الحجاج في منطقة آبار أبي الحلو خلال اليومين الرابع والخامس من رحلة العودة الشاقة التي استمرت أحد عشر يوماً، إذ انطلقت القافلة من المدينة إلى ميناء الوجه في نيسان من عام ١٩٠٨. يقف زعيم القبيلة بجانب كل من أمير الحج (إلى اليمين) ومساعد الأمير، وتبدو خلفهم شجرة الطرفاء التي نمت بكثرة في تلك المنطقة.



الجمال إلى السير فوق صخور داكنة للغاية، بدت أكثر سواداً من سابقتها، جعلت المكان كله يبدو قاتماً وأصبح هذا الشعور عميقاً بغروب ضوء النهار. ولكن، وسْط هذا السواد، كشفت قوائم جمل السعودي، التي أزالت التربة السطحية، عن تربة أخرى ضاربة إلى الحمرة، لاحظ السعودي وجودها حين كان يحدّق في الأرض. أما الوقفة الأخيرة للقافلة فكانت عند منتصف الليل تقريباً، حيث نصُبت الخيام في موقع مغبرّ تكثر فيه الآبار التي يبدو أن معظمها كان مهجوراً.

اليوم السادس. التاسع من إبريل (من السبخات إلى الفقير[1] (Al–Faqir)).

خرج السعودي من خيمته ليكتشف أن القافلة قد عسكرت «في وادٍ عميق يشبه قاع البحر»، وقد كست طبقة، لا بأس بها، من الملح أرض الوادي. عندما تحركت القافلة وجد السعودي أن أمطاراً حديثة قد شكلت جدولاً صغيراً لا يتجاوز عمقه المتر الواحد تقريباً. سارت القافلة عبر الوادي مدة تقل عن سبع ساعات بقليل، مرّ الحجاج خلالها ببعض أشجار القات التي تبعثرت هنا وهناك. توقفت القافلة في الساعات المبكرة من المساء عند منطقة الفقير حيث الآبار العذبة؛ «أحاطت الجبال بالمخيم مثل صخور متحجرة تخللتها طبقات عمودية من الصخور الرخامية البيضاء التي كانت لها نهايات حادة مثل الزجاج».

مكّنت هذه الوقفة السعودي من استكشاف البيئة المحيطة به فقام بتسلق إحدى المنحدرات الجبلية السهلة، برفقة الأمير. وجد السعودي بعض البدو الودودين عند قمة الجبل، فابتاع منهم بعض المخيض الذي أضافه إلى الشاي لإكسابه نكهة مختلفة.

اليوم السابع. العاشر من نيسان. (من الفقير إلى العقلة[2] (Al–ʻAqla).

انطلقت القافلة من جديد لتبدأ رحلة شاقة استمرت لثماني عشرة ساعة. أدى السعودي صلاة الظهر على ظهر جمله، وبمرور ساعات النهار شعر السعودي بالنعاس الذي سرعان ما غلبه ولم يفق

---

(1) تعدّ منطقة الفقير جزءاً من ينبع. (المترجم)

(2) لعل الكاتب يعني قرية عقلة بن جبرين التي تقع جنوب غرب حائل وتبعد عنها 60كم. (المترجم)

إلا وقد سقط، بينما كان داخل الشاكداف، عن ظهر الجمل. لم يصبه أذى، ولكن، بينما كان يتفقد الأضرار المحتملة التي لحقت بالحمولة، اكتشف السعودي أن الخيوط التي صنعت منها الحبال قد اهترأت. تلقى الأول بعض المساعدة من أحد الجمّالين الذي قام بمعالجة الحبال فتمكن السعودي من تسلق ظهر جمله من جديد، لكنه انزلق مرة أخرى. لم يكن السعودي الوحيد صاحب الحظ العاثر الذي واجه بعض الصعوبات في ذلك اليوم، فقد عانت والدته والعديد من الحجاج الآخرين من صعوبات مماثلة. تقدمت القافلة ببطء بسبب هذه الحوادث، ولم تتمكن من الوصول إلى آبار عقلة إلا بعد حلول الظلام بوقت طويل. اكتشف الحجاج المنهكون أن الآبار حوت القليل من الماء، فاضطروا إلى شرب الماء الذي احتفظوا به منذ الصباح.

اليوم الثامن. الحادي عشر من نيسان. (من العقلة إلى الأجلة (Al–Ajla).

بينما كانت الحملة تستعد للرحيل، اكتشف السعودي أن أحد جماله يعرج، اعتاد السعودي الاعتماد على وجود جمل احتياطي، إلا أن حازم؛ جمّال الأمير الذي تبين أنه لا يمكن الوثوق به أيضاً، خذل السعودي من جديد فاضطر الأخير إلى التوسل إلى الأمير ليخرجه من هذا المأزق. قادت طريق الرحلة القافلة هذه المرة إلى وادٍ مرتفع اخترق سلسلة من الجبال. شعر السعودي بالإنهاك الشديد بسبب السفر المتواصل وشُح مياه الشرب وحرارة الشمس الحارقة التي تعرض لها طوال النهار. ولم تتمكن القافلة من إيجاد مصدر مياه طوال عشر ساعات قضتها في السفر، وعندما وصلت إلى الأجلة لم يجد الحجاج سوى عين ماء صغيرة تتدفق من الجبل. كتب السعودي واصفاً مشقة الرحلة فقال: «لا يمكنني تخيّل رحلةً مهلكةً أكثر من هذه».

شعرَ الحجاج بالطمأنينة في ذلك اليوم بفعل تصرف كلب أسود اللون، كان قد لحق بالقافلة عندما غادرت المدينة ورفض العودة. «أفادت بعض الخرافات التي اعتقد بها الحجاج أن ظهور الكلب يُنبئ بالسلام، واعتقدوا، بالإضافة إلى ذلك، أن الله اختار هذا الكلب لحماية القافلة». واعتقد آخرون أنه فأل سعد للقافلة، ورأى السعودي زوجة مسؤول خزنة المحمل وهي تتوقف لتقدم للكلب بعض الماء.



خبير أجنبي في أمراض الكوليرا، عمل في محجر الطور الصحي في سيناء حيث قضى الحجاج أربعة أيام قبل العودة إلى السويس، وقد تمكن طبيب ألماني عام ١٩٠٥ من اكتشاف سلالة جديدة من مرض الكوليرا كان بعض الحجاج قد أُصيبوا بها، وعُرفت منذ ذلك الوقت بكوليرا الطور.

اليوم التاسع. الثاني عشر من نيسان (من الأجلة إلى خوتلة (Khawtala)).

اضطرت القافلة إلى سلوك درب جبلي وعر. شعر السعودي بالنعاس معظم ساعات الصباح، فنام نوماً خفيفاً على ظهر جمله. لحسن الحظ، لم يدرك السعودي المخاطر المحيطة به حتى قامت والدته بإيقاظه. والآن أصبح السعودي متيقظاً للغاية، فقاد جمله بحذر شديد حتى يتمكن من تجنب خدوش أشواك شجرة الضريم[1] (Dhureim). اضطر السعودي أحياناً إلى النزول عن ظهر جمله ورغب عندها في التقاط بعض الصور، لكنه كان بحاجة إلى من يرشده لتجنب الشجيرات ذات الأشواك. «كل ما يوجد على هذه الأرض القديمة عدائي حتى النباتات المزهرة». وبمرور النهار، صبّ السعودي جام غضبه على حازم الذي حاول أن يسترضيه ويخفف من غضبه الذي أثاره جمله الأعرج، فقد ترك القيادة لأحد الدراويش وكان اسمه بيّومي (Bayyumi) وارتدى عمامة حمراء اللون. بحلول المساء، تحول المنظر الطبيعي من حول السعودي إلى مشهد قاحل وكانت الآبار التي مرّت بها القافلة جافة. لذلك، ساورت الشكوك السعودي بشأن مرشدي القافلة واعتقد أنهم تعمدوا تضليلها.

سيطرت هذه الحالة النفسية على السعودي فشعر بغضب شديد تجاه المسؤولين عن تنظيم رحلة الحج المصرية في القاهرة لما أبدوه من انعدام الكفاءة. « لم يهتم أولئك المسؤولون عن إدارة الأزهر إلا بالاحتفال بمغادرة المحمل للوطن وعودته والمراسيم الاحتفالية المرافقة للكسوة ... لم يبد أي منهم أي اهتمام بالمصاعب التي يواجهها الحجاج وبخاصة فيما يتعلق بعلاقتهم بسكان مكة والمدينة، أو حتى علاقتهم بالحكومة العثمانية القاسية، أو علاقتهم بالبدو الذين خرجت تصرفاتهم عن نطاق السيطرة والذين يجهلون أوامر الله عزّ وجلّ».

وصلت القافلة إلى خوتلة في جنح الظلام وبعد أن تابعت المسير مدة إحدى عشرة ساعة، شعر السعودي بالارتياح فقد توفرت في خوتلة مياه شرب عذبة.

---

(1) شجرة دائمة الخضرة تستخدم أوراقها في الطب الشعبي كمسكن للألم وخافض للحرارة. (المترجم)

اليوم العاشر. الثالث عشر من نيسان (من خوتلة إلى أم حراز (Umm Haraz)).

خشي الأمير أن يقوم البدو بمهاجمة القافلة من جديد خلال هذه المرحلة الأخيرة من الرحلة إذ لم يحصل على أي ردّ على برقيته التي أرسلها إلى القاهرة مستعلماً عن هذه البقعة. قرّر الأمير التحرك على نحو سريع دون التوقف خلال الليل حتى تصل القافلة إلى ميناء الوجه، وذلك لتقليص مخاطر هجوم قبائل البدو.

أدى السعودي صلاة الفجر قبل بزوغ نهار ذلك اليوم الذي تيقن أنه سيكون يوماً طويلاً شاقاً. شقت القافلة طريقها بحذر عبر الجزء المتبقي من الجبال مدة أربع ساعات، قبل أن تبدأ بالانحدار باتجاه سهل حار، جاف، يخلو من الأشجار. وهناك، عاودت ظاهرة السراب بالظهور من جديد؛ «بدت قوائم الجمال مشوهة وأطول مما هي عليه في الواقع بفعل السراب. توقفت القافلة قرب نهاية النهار للحصول على قسط من الراحة وقبل أن تستأنف السفر مرة أخرى بعد حلول الظلام».

تحركت القافلة تحت ضوء القمر الذي كان بدراً، إلا أن الدليل سلك الاتجاه الخاطئ فضلّ طريقه. أراد السعودي أن يستعين ببوصلته، لكنه لم يستطع أن يجدها، لذلك حاول أن يجد الطريق الصحيح بمساعدة الفلك (النجوم). خلد السعودي إلى النوم عند الساعات الأولى من الصباح، داخل شاكدافه، وحلم بمآذن مسجد الرسول في المدينة وقبته الخضراء الرائعة. عندما استيقظ السعودي شعر بحاجة ملحة إلى التوجه بالدعاء إلى الله عز وجل. وفي نهاية الأمر وعند بزوغ ضوء النهار، رأى السعودي ميناء الوجه من مسافة ليست ببعيدة. وعلى الرغم من الإنهاك الشديد الذي أصابه بعد قضاء اثنتين وعشرين ساعة في ترحال متواصل تقريباً، أدرك السعودي مدى حزنه لمغادرته «الأرض المقدسة».

اليوم الحادي عشر. الرابع عشر من نيسان (ميناء الوجه AL – Wajh).

وأخيراً، نُصبت خيام الحجاج قرب الظهيرة بعد سفر متواصل استمر طوال الليل. سرعان ما أحاطت النساء والأطفال من سكان هذه المدينة، بالخيام لإبداء إعجابهم بالمحمل. أما الرجال فكانوا

توّاقين لشراء شاكدافات الحجاج، لكنهم عرضوا سعراً زهيداً لم يتجاوز عشرة قروش للشاكداف الواحد، وهو سعر لا يُقارن مطلقاً بالمئتين وعشرين قرشاً التي دفعها السعودي ثمناً للواحد منها، في بداية الرحلة. كتب السعودي في يومياته: «كنت سأهب الشاكداف الخاص بي لأي شخص يطلبه، دون مقابل».

تلهّف الحجاج لركوب سفينة المنيا (al–Minya) البخارية وتدافع العديدون منهم باتجاه المرفأ فقد عدّوا السفينة «الخلاص الوحيد بعد ما عانوه من العذاب والمشقة»، حتى إن بعضهم خرّ ساجداً لما شعر به من راحة مطلقة عندما وجد سفينة المنيا بانتظاره. انضم السعودي إلى الأمير الذي قام بعض أصحاب المقامات الرفيعة من السكان المحليين باستضافته، ثم قام بعد ذلك بحزم أمتعته وأشرف على عملية تحميلها ليتأكد من سلامتها بنفسه.على أي حال، لم تغادر المنيا في ذلك اليوم، ولذلك حصل السعودي على قسط من الراحة وشعر بالامتنان تجاه الطبيب سليمان بيك حمادة (Dr. Sulayman Bek Hamadeh) الذي وفّر له بعض الصحف وقدم إلى ميناء الوجه ليقابل السعودي والأمير على وجه الخصوص. وسُرّ سليمان بيك كذلك لأنه تمكن من تناول سمك طازج بعد أن قضى شهوراً دون أن يحصل على أيّ منه.

أما حازم؛ جمّال الأمير، فاستمرّ في إثارة المتاعب حتى اللحظة الأخيرة. ادعى بعض المرشدين أن حازماً يدين لهم بالمال، في حين ادعى الأخير أنه لن يتمكن من دفع هذه النقود إن لم يحافظ الحجاج على وعودهم، فيدفعوا ما يدينون له من النقود. في الخامس عشر من نيسان، صعد حازم إلى ظهر السفينة ليحرص على دفع الحجاج المال، وبالطبع تبعه المرشدون لتحصيل أموالهم.

«لقد كان جدالهم وشتائمهم وصراخهم صاخباً للغاية. وشعرنا، لحظة أن وطأت أقدامنا سطح السفينة التي ستعود بنا إلى الوطن سالمين، بكلّ ما أضمروه لنا من كره وحقد». شعر السعودي بالأسى تجاه هؤلاء الأشخاص الذين سيطرت عليهم النقود، وانتهى الأمر بأن دفع لحازم مبلغاً يفوق ما تمّ الاتفاق عليه.

عندما أبحرت السفينة، شعر السعودي بالتوتر بسبب الرحلة القصيرة باتجاه محجر محطة الطور الصحي، فلقد أيقن أن أربعة أيام أخرى سيقضيها الحجاج في عملية تعقيم طويلة كانت، في الواقع، ضرورية لمنع التقاط الحجاج عدوى الكوليرا. احتاج السعودي إلى أن يعمل على تظهير صوره الفوتوغرافية، فضغط على الأمير والطبيب سليمان بيك حمادة، فقام الأخير باتخاذ الترتيبات اللازمة لحصول السعودي على معاملة خاصة في محطة الطور. أولاً، لم تتعرض أدوات التصوير الخاصة بالسعودي إلى عملية التعقيم بالبخار. ثانياً، وُضعت إحدى حجرات المستشفى تحت تصرف السعودي، وفيها تمتع «برفاهية غير متوقعة تتمثل في حصوله على سرير وطاولتين ومصباح كهربائي وهاتف، بالإضافة إلى ماء ساخن ومرآة». أزالت هذه المعاملة الطيبة ما شعر به السعودي من إنهاك بفعل رحلته البرية القاسية؛ «أشكر الرب لأنه نجّاني من هذه المشقات ووهبني هذه الخدمات الرائعة التي هي في الواقع مثيرة للإعجاب، فهذه الحجرة أروع من قصر بأكمله. لا أعتقد أن الأمير أو الحجاج الآخرين قد تلقوْا المعاملة ذاتها».



وُجدت هذه البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) في إحدى مذكرات السعودي.

المُعجم

إحرام (Ihram): حالة التطهر التي يجب أن يتخذها كل الحجاج عند دخول الأماكن المقدسة في الإسلام، وتستخدم الكلمة كذلك لوصف الملابس التي يرتديها الحاج (ملابس الإحرام). تقتضي طقوس الحج ارتداء هذه الملابس – قطعتين من قماش أبيض غير مخيط – عند الوصول إلى معالم معينة تحدد تخوم المناطق المقدسة.

أغوات (Aghawat): حرّاس دور العبادة. جرت العادة أن يكون هؤلاء الحراس مخصيين.

باب(Bab): باب أو بوابة ونعني بها النقطة التي يتم عبرها الدخول إلى المدن المسورة أو المساجد.

الباب العالي (Sublime Porte): اشتُق هذا الاسم من مدخل أو باب قصر طوب كابي[1] (Topkapi Palace) المهيب في إسطنبول حيث استقبل الوزير الأعظم[2] المندوبين الأجانب. أما كلمة «Porte» فهي فرنسية. وقد أصبح مصطلح «الباب العالي» بعد ذلك يشير إلى سلطة حكام الدولة العثمانية.

بئر (B'ir): اكتسبت الكثير من المناطق أسماءها من مسميات الآبار التي كانت تحدد مدّة السفر على ظهور الجمال.

تكية (Tiqiya): بيت الصدقات الذي أنشأته السلطات المصرية في مكة والمدينة لمساعدة الحجاج على التكيف، فهو يزود المحتاجين منهم بالمبيت والمأكل. لقد

---

(1) يُعرف قصر طوب كابي بالتركية بُتوبكابي سراي، وكان مركز الحكم في الدولة العثمانية من عام 1465م إلى 1853م. (المترجم)

(2) الوزير الأعظم (Grand Vizier)، ويُعرف أيضا بالصدْر الأعظم (Azam–1– Sadr) أو (Sdrazam) بالتركية. (المترجم)

قامت وزارة الأوقاف بدعم هذه التكية التي كانت أشبه بنُزل.

جمرة (Jamra): أحد الأعمدة الثلاثة التي يقذفها الحجاج بالحصى أو الحجارة خلال الحج، وترمز هذه الفريضة إلى محاولة الحجاج طرد إبليس ونبذه.

جمّال (والجمع جمّالة) (Jammal \ Jammala (Pl.)): هو المسؤول عن تحميل الجمال وقيادتها ويعدّ شخصاً مهماً بالنسبة إلى الحجاج الذين لم يعتادوا ركوب البعير.

حَمْد (Hamd): نبات [سام] يُطلق عليه قاتل الكلب وهو عشبة تقليدية استخدمت لأغراض طبية تنمو في شبه الجزيرة العربية، وقام البدو بتدخين أوراقها من خلال الغليون. تمنح أوراق النبتة الداكنة الصحراء مظهراً خصباً زائفاً وبخاصة في فصل الصيف.

الحَرَم (Haram): تعني هذه الكلمة حرفياً «مقدساً» أو «مُحرَّماً» وهي، في الواقع، تصف الفناء أو الباحة المحيطة بالمسجد الحرام في مكة وتلك المحيطة بضريح رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في المدينة. أما عبارة «الحرم الشريف» (Al–Haram Al–Sharif) فتصف الباحة المسوّرة المحيطة بالمسجد الحرام في مكة. ويمكن أن تصف الكلمتان أيضاً هاتين المدينتين (مكة والمدينة النورة) التي يُحرّم على غير المسلمين دخولهما.

الحرملك أو الحريم (Harim): هو الجزء الخاص بالنساء في المنزل، لكنها تصف كذلك الخيام الخاصة بالنساء خلال رحلة الحج.

الحرمل (Harmel): ويُعرف كذلك بنبات السذّاب وينمو في المناطق الصحراوية في شبه الجزيرة العربية، وله تاريخ طويل فيما يتعلق باستخدامها في الطب العربي.

سَعْي (Sa'i): أحد طقوس الحج الذي يقتضي الهرولة أو المشي سبع مرات بين تلّتين تُعرفان بالصَفا والمروة، ويعدّ هذا الطقس محاكاة رمزية لما فعلته السيدة هاجر (Hajar)؛ زوجة النبي إبراهيم، عندما هرولت مسرعةً بين التلّتين بحثاً عن الماء الذي أوحى إليها الملك جبريل بمكانه عند بقعة باتت تُعرف ببئر زمزم. إذا أدى الحاج هذا الطقس على النحو الصحيح فستبلغ المسافة التي يقطعها الحاج ثلاثة كيلومترات ونصف.

سنة (Sunna): تصف هذه الكلمة مسلك النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

سيّد (Sayyid): لفظة تستخدم لإظهار الاحترام لشخص يزعم أنه ينحدر من سلالة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم. وتستخدم اللفظة ذاتها للدلالة على شخص ذي منشأ نبيل.

شاكداف: نوع خاص من المقاعد التي صُمّمت للحجاج، وتُثبت على ظهر الجمل. يتكون الشاكداف من إطار خشبي ثُبّت فوقه مقعد مبطّن افترش ظهر الجمل، ويعلوه غطاء لحماية الحاج من الشمس والمطر. ويتكون بعض الشاكدافات من مقعدين متوازيين يشبهان السّلة يتم تثبيتهما باستخدام لوح خشبي يحافظ على توازنهما.

شريف (Sharif): رجل يزعم أنه ينحدر من نسل الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويميز نفسه عن الآخرين على أرض المعركة. وتستخدم هذه اللفظة كذلك لوصف شخص ذي منشأ نبيل.

شيخ (Sheikh): رجل من النبلاء وزعيم قبيلة أو قرية ما.

شيخ الإسلام (Sheikh Al-Islam): لقب يمنح لمرجع متميز في قضايا الإسلام وتعني حرفياً من اكتسب معرفة واسعة في تعاليم القرآن الكريم ومبادئه وآراء وأفكار

علماء المسلمين البارزين. استخدم اللقب ذاته فيما بعد للدلالة على مكانة مرموقة ومميزة يحتلها الفرد داخل الإمبراطورية العثمانية.

طواف (Tawaf): أحد شعائر الحج ويتلخص في طواف الحاج سبع مرات حول الكعبة، في حين يتلو الدعاء وآيات من القرآن الكريم. يقوم الحجاج بالطواف بمجرد دخولهم إلى مكة ثم مرة أخرى قبل مغادرتهم لها.

الفجر (Fajr): نجد في هذا الكتاب حديثاً عن وقت الفجر وصلاة الفجر.

كعبة (Ka'ba): هي ذلك الجسم المكعب الشكل والمقدس عند المسلمين، ويُوجد في المسجد الحرام في مكة ويوجد عند زاويتها الشرقية الحجر الأسود القديم. يطوف جميع الحجاج حول الكعبة في حين يوجهون دعواتهم لله عزّ وجل.

كسوة (Kiswa): غطاء الكعبة المخملي المزركش بخيوط من الذهب، وكان يصنع عادة في مصر. كانت الكسوة تُحمل داخل المحمل كل عام حتى يتم استبدال الغطاء القديم.

محمل (Mahmal): المحفّة التي تُحمل إلى الديار المقدسة وترمز إلى السلطة التقليدية التي تمتع بها حكام مصر. يتكون المحمل من محفة ذات إطار خشبي مفرغ يرتفع إلى الأعلى على شكل هرم وقد لُف المخمل المزركش بكتابات خيطت بخيوط ذهبية. يعود تقليد المحمل الذي يحمل الكسوة إلى الديار المقدسة إلى القرن الثالث عشر عندما أراد الحكام المماليك نقل الهدايا التي أرادوا وهبها للأضرحة في مكة والمدينة المنورة ولسكان هاتين المدينتين. بالإضافة إلى المحمل المصري، كان هنالك المحمل السوري والمحمل العثماني، بيد أن هذا التقليد توقف بعد أن سيطرت السلطات السعودية على أراضي الحجاز.

ميقات (Miqat): الحيز الذي يظهر حدود المنطقة المحيطة بالأماكن المقدسة حيث يبدأ الحجاج عندها حالة الإحرام الضرورية والأساسية لإتمام فريضة الحج.

محمد عبده (Muhammad ‘Abduh)(**1849–1905**): إصلاحي ومفكر وأحد المفسّرين البارزين لتعاليم الإسلام، وقد أصبح المفتي الأعظم لمصر.

مُحرِم (Muhrim): الحاج الذي دخل حالة التطهر أو الإحرام ويعدّ ذلك أحد شعائر الحج.

مُقدّم (Muqaddim): رتبة عسكرية تُعادل رتبة الكولونيل (Colonel) أو القائد (Commander).

مُطوِّف والجمع مُطوِّفون (Mutawwif\ Mutawwifin (Pl.)): الدليل الذي يُرشد الحجاج ويساعدهم في الأراضي المقدسة، ليتمكنوا من أداء طقوس الحج التي تبدو معقدة بالنسبة إلى البعض.

منشفة أو بشكير (Bashkir): قطعة قماش بيضاء اللون يرتديها الحاج ليحصل على قليل من الدفء عند المطر.

وهّابي (Wahhabi): أحد أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1]؛ العالِم الديني الذي عاش في القرن الثامن عشر، والذي اتخذ موقفاً مختلفاً تجاه الإسلام فقد كان مصلحاً سنياً ومجدّداً. ولقد تبنّت عائلة سعود الحركة الدينية (الوهّابية) التي ساهم محمد بن عبد الوهاب في نشرها، عند غزوها شبه الجزيرة العربية.

والي (Wali): حاكم منطقة معينة تقع تحت حكم الإمبراطورية العثمانية.

وقف (Waqf): هبة دينية الطابع.

---

(1) دعا محمد بن عبدالوهاب إلى عقيدة التوحيد، وسُمي أتباعه بالسلفيين نسبة إلى السلف الصالح، وكان جلّ دعوته إعادة الناس إلى مذهب التوحيد ونبذ الشرك، الذي كثر آنذاك مثل التعبد بالقبور والتقرب بالأصنام والأشخاص والتعامل بالسحر. (المترجم)


لا إله إلا الله محمد رسول الله
سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم
يا حنان
يا منان